محمد السعيدي الرجراجي

رباط شاكر

(سيدي شيكر) والتيار الصوفي حتى القرن السادس الهجري



محمد السعيدي الرجراجي

رباط شاكر

(سيدي شيكر)
والتيار الصوفي حتى القرن السادس الهجري

(الطبعة الأولى)

مراكش 2010/1431

الكتاب : رباط شاكر -سيدي شيكر- والتيار الصوفي حتى القرن السادس الهجري
الكاتب : محمد السعيدي الرجراجي
الإيداع القانوني : 2010mo0159
المطبعة : وليلي للطباعة والنشر-مراكش

أنجز هذا العمل برعاية من مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال
479 الوحدة الرابعة، الداوديات - مراكش
تلفاكس: 05.24.30.73.59
Afaqedit@gmail.com

بسم الله الرحمان الرحيم

من درر أمير المؤمنين

لقد أبينا إلا أن نضفي على ملتقاكم هذا، وهو الأول من لقاءات سيدي شيكر العالمية سابغ رعايتنا السامية من منطلق الأمانة التي نتقلدها كأمير المؤمنين، والتي تلقي على عاتقنا مسؤولية رعاية الشؤون الدينية في مملكتنا بجميع مظاهرها وأبعادها. لذا يطيب لنا أن نوجه إليكم هذه الكلمة مرحبين بكم متمنين للمشاركين في هذا الملتقى من خارج المغرب مقاما هنيئا ومفيدا، يتعرفون خلاله على بلد يقترن في ذاكرتهم برصيد من التراث الصوفي والتربوي الروحي، المتمثل في عدد من أقطاب التصوف الإسلامي وشيوخه من المغاربة المعروفين على مستوى العالم الإسلامي.

من الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين
في اللقاء الأول من لقاءات سيدي شيكر
العالمية مراكش
24 رجب 1425هـ - 10 شتنبر 2004م

الإهداء

إلى الذين يجدون الراحة والاطمئنان والسكينة حينما يقرأون قول الله تعالى :

"الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب "

صدق الله العظيم

سورة الرعد الآيتان:30/29

مقدمة :

الكتابة عن شاكر ورباطه كانت أمنية مرجاة، وها هو اليوم هذا التعريف البسيط بالرباط وصاحبه توخينا فيه أن يكون مختصرا قدر الإمكان، سهل التناول، بعيدا عن التمطيط والتطويل، مؤديا الغاية التي ننشدها منه وهي إلقاء نظرة سريعة على هذه الناحية وعلى رباطها الذي كان معلمة منيرة بما يقصده من كمل الرجال، صوفيين وعلماء وزهاد ومتوكلين ومجاهدين.

وإذا كان أمير المؤمنين حفظه الله أمر بأن يعاد لهذا الرباط وهجه ولهذه المنطقة نشاطها فلأن جلالته يدرك أن الرباطات ببلادنا لعبت دورها الروحي والتصوفي والعلمي والإنساني على مدار التاريخ المغربي الذي هو صفحات ناصعة من صفحات تاريخ أمتنا الإسلامية والعربية التي قال فيها رب العزة "كنتم خير أمة أخرجت للناس".

لقد كان تصورنا أن اللقاء سيتكون من شقين:

أ- شق ثقافي تلقى فيه عروض عن التصوف العام العالمي، وعن التصوف الإسلامي بما فيه المغرب، وعن التصوف بهذه الناحية، وتقام بعض الندوات حيث من المفترض أن يكون الحاضرون ملمين بالظروف والصيرورات التي كانت وراء الاختيار لهذه البقعة التي وصفت بأنها "أشرف بقعة".

ب- شق اجتماعي ديني فني تواصلي وجداني بما فيه إقامة جلسات للذكر والسماع، وزيارة بعض المتصوفين الذين كان لهم حضورهم وتأثيرهم وقت ازدهار رباط شاكر كالشيخ أبي محمد صالح دفين آسفي والذي كان من المواظبين على زيارته، أو الذين تعد زيارتهم استكمالا لنجاح الملتقى زيادة على مراكزهم الدينية والصوفية كرجال مراكش السبعة.. إلا أن الملتقى سار في توجه آخر وإن لم يخل مما ذكرنا، ولكنه اكتفى فيما يرجع للتصوف المغربي بتقديم معلومات بسيطة جدا لا تغني لا القارئ المتخصص ولا العادي، قدمت في كتاب أنيق جيد الطباعة والصور الملونة بلغات ثلاث.

والمقصود من هذا التوجه معروف ومضبوط ومقدر لأنه يهدف إلى غايات أخرى أقرها إدراكا عدم السقوط في المحلية والجهوية والتنافسية بين الزوايا والطرق وما أكثر اختلافاتها، وما أكثر تعدد أنماطها وأشكالها وتشعباتها..

ولكن يبقى السؤال ملحا ومطروحا بالقوة؟

هل عرف الملتقى بشاكر كشخص وكمجاهد ومتصوف حسب المفهوم للتصوف أيامئذ؟ هل الذين حضروه كونوا فكرة – ولو موجزة – عن الرجل والرباط وإشعاعه ووفود المتصوفين على تربته طوال مئات السنين؟

وإلحاحنا على هذه النقطة هو إدراكنا أن القفز على قرون مضيئة من المجاهدة النفسية والدينية والإنسانية بهذه الناحية وغيرها فيه بعض التجاوز اللامقصود حتى لا نقول بعض الإهمال والحيف.

وربما كان لهذا التجاوز – المبرر طبعا في نظر المنظمين – بعض الأثر على الجو العام للملتقى، الذي كنت تحس فيه بأن ذلك الإحساس الماورائي المرفرف بأجنحة من نور في مثل هذه المواقف والتجمعات غير

موجود بنسبة مريحة، فإذا استثنينا اللحظات التي استمع فيها للرسالة الملكية، واللحظات التي ألقى فيها وزير الأوقاف كلمته الختامية، واللحظات الإنسانية في قبة الشيخ أبي العباس السبتي والشيخ بن سليمان الجزولي، وما تركته محاضرة الدكتور طه عبد الرحمان في النفوس من أثر حسن، ألفيت الباقي وكأنه عبارة عن مباراة تثقيفية وترفيهية فيها أكل وشرب وراحة وتعارف وما إليها، وهي – على أهميتها – لن ترقى إلى ما يبتغى من ملتقى صوفي عالمي مطلوب منه أن يحيي النفوس بعد موات، ويجدد العهد بعد تقادم، وينير العتمة بعدما طالت محنتها واشتد دجاها.

والمأمول أن تكون لقاءات سيدي شيكر مناسبة مهمة لبلورة المعاني الصوفية في العالم كله، وجعل الناسْ يلتقون في صعيدها معانقين أسس المحبة والتواصل والتفاهم والسلام بين البشر.

والمأمول أن يؤدي هذا الكتاب الغاية التي قصدناها من كتابته في الذكرى الأولى للملتقيات[1] آملين المشاركة في بلورة ما زخرت به قرون وقرون من التواد والتسامح والعمل المفيد.

والله المسؤول أن ينفع به ويجعله عملا متقبلا.

---

1 - حبر هذا الكتاب على أساس أن يكون جاهزا في اللقاء الثاني لملتقيات سيدي شيكر – شاكر – إلا أن ظروفا حالت.

الفصل الأول

قبل بزوغ الإسلام

المغرب وسكانه الأصليون:

صدق الأستاذ المؤرخ عبد الله العروي وهو يقرر هذه الحقيقة: "بيد أن سوء حظ المغرب الحقيقي هو أن تاريخه كتبه لمدة طويلة هواة بلا تأهيل، جغرافيون أصحاب أفكار براقة، وموظفـون يـدعون العلـم، وعسكريون يتظاهرون بالثقافة. ومؤرخو الفن يتجاوزون اختـصاصهم، وبكيفية أعم مؤرخون بلا تكوين لغوي أو لغويون وأرخيولوجيون بـلا تأهيل تاريخي، يحيل بعضهم على الآخر، يعتمد هؤلاء علـى أولئـك، وتحبك خيوط مؤامرة لتفرض الافتراضات البعيدة كحقـائق مقـررة"[1] وهذا حق وصدق. وقد ينسحب على تاريخ مغربنا كله إلا من بعـض اللمع، فإن البلبلة والشك واللاتدقيق وحتى اللاإنصاف تجدها تحاصرك وأنت تبحث محاولا أن تجد نبراسا يهديك إلى ما تطمئن إليـه، إلا مـا يختص بالجانب الرسمي وهو بدوره كتب وفيه دخل كبير.

فسكان المغرب مرة من الوندال ومرة وافدون من الأنـدلس، ومرة يهود وأخرى عرب خلص، وأخرى برابـرة عـرب، وأخـرى

---

[1]- مجمل تاريخ المغرب 27/1 المركز الثقافي العربي ط: 6 – 2000.

أفارقة... كأنهم الشعب الوحيد في التاريخ الـذي تعـددت قومياتـه واختلفت هوياته، وظهرت فيه ديانات أفسحت المجال في الأخير للديانة الإسلامية التي انصهر فيها الكل وظهر للوجود شعب مغربي مسلم لـه ذاتيته وخصوصياته ومكانته بين الشعوب.

وغني عن البيان أن أربعة آلاف سنة من التـاريخ – لم تكـن كلها سائرة وفق رسم بياني واحد – لابد أن تترك كثيرا من التساؤلات والافتراضات والتأويلات، وسبب ذلك أن المغرب بلد متحرك ومقصود من كل الموجات الإنسانية والنحلات المتباينة، وفاتح أبوابه على الشرق والغرب، ومستعد ليؤثر ويتأثر، ويعانق التيارات المختلفة التي لم تكـن دائما بردا وسلاما عليه وعلى توجهاته وسكانه ومصالحه وعلاقاته.

ولا نريد التيهان نستقصي الآراء والنظريات حـول أصـول المغاربة، خاصة ونحن نتحدث في موضوع محدود المساحة، محدود الوقت والتوقيت، ولكن مع ذلك نشير للآتي:

أ- يقول العلامة بن خلدون: "والحق الذي لا ينبغي التعويـل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح" وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين"[2].

ب- يقول الناصري: "وقال في كتاب الجمان: وأما تسميتهم بالبربر فإنه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان كان له ولد يسمى بـر فخرج مغاضبا لأبيه وإخوته إلى جهة المغرب، فقال النـاس بربـر أي توحش في البراري فسمي بربرا"[3].

وقد قسموا برابرة المغرب إلى برانس وبتر وتحت كـل مـن القسمين قبائل وأفخاذ وشعب ودول وإن كانت القبائل المصمودية أكثر

---

[2]- تاريخ ابن خلدون 127/6 – دار الفكر ط 1- 1981/1401.

[3]- دار الكتاب الدار البيضاء 1954.

انتشارا وأشد بلاء وأقوى شوكة وأمضى عزيمة ورغم أن أقوالا كثيرة وبحوثا عديدة حول هذا فيها الراجحة والمرجوحة، وفيها المتجنية والمنصفة، فإنها كلها اتفقت على أن: "البربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها، ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل، وقد تعددت فيهم الدول، وكثرت فيهم الملوك العظام، وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام، واليد البيضاء في الجهاد ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء وأهل المزايا والفضائل"[4]. فهم أهل حضارة مرموقة حسب تعريفات الحضارة زمنئذ، وهم ذو فكر متقد ونشاط كبير وإبداع وحماس وطموح...، وهم عشاق الحرية – كبني عمومتهم – يفضلونها على الزرع والضرع، والماء والهواء.

وهذا الكلف بالحرية إلى منتهاه كان له في بعض الأحيان تأثير سيء على الاستقرار والحياة بعامة، فالحرية كما هي مطمح وأمل وحياة هي كذلك التزام وتعاقد، ولذلك قالوا: "حريتك تنتهي حيث تبدأ حريتي"، أي لابد من توافقات وتضحيات وتنازلات من الجميع لتستقيم الحياة وتستمر بعيدة عن التوترات والفتن.

وهم أهل إباء وشمم، ولا عجب إذا ثاروا على الاستعمار بكل أشكاله وألوانه ومسمياته: وندال ورومان وبيزنطيين إلا الفينيقيين الذين أثروا فيهم وتعلموا منهم وأفادوهم، ثم لأن الفينيقيين كنعانيون، وقد ذكرت بعض المصادر كيف كان ملوك إفريقيا عارفين بلسان العرب"[5].

والأكثر من هذا أن الفينيقيين تعاملوا وإياهم معاملة الند للند، لم يستغلوهم ولم يرسلوهم إلى الجندية قسرا، ولم يستبدوا بهم، ولم يطبقوا

---

[4]- نفسه ص:57.

[5]- المغرب الأقصا ومملكة بني طريف البرغواطية – أحمد الطاهري ص: 65 عن الواقدي – فتوح إفريقيا/تونس 1666 ج 7/1.

عليهم سياسة المحتل فنشأت ثقة كبيرة بين الجانبين كان لها أثر محمود في علاقاتهم وتعاونهم.

وهذه الأمواج من البشر التي سكنت إفريقيا في مدن وضياع "وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة"[6]. كان بها أقوام مختلفون وأهواء متعددة ونحلات منحرفة قبل الإسلام حيث عبدوا الشمس والحيوان ومختلف الظواهر الطبيعية وكان بها من تمجس أو تدين باليهودية أو المسيحية حيث كانت الروابط متصلة بالشرق العربي.

اليهودية والمسيحية كانتا منتشرتين:

كانت اليهودية منتشرة في أكثر من ناحية بل عرفت عدة أمكنة ومدن بيهوديها الكثيرين وحتى في العهد الإسلامي عاش اليهود في المغرب إلى جانب مواطنيهم المغاربة عيشة استقرار وتواد. إلا أن هؤلاء اليهود كانوا إما من نسل مغربي فتهودوا، وإما من الوافدين الذين اختاروا المغرب وطنا لهم، وسواء هؤلاء أو أولئك فقد تمتعوا بحرياتهم الدينية والفكرية والمجتمعية حتى إن صاحب دولة برغواطة يقولون عنه من ذرية "ولد شمعون ابن يعقوب بن إسحاق".

وكانت المسيحية بدورها منتشرة وسط كثير من البرابرة الذين تدينوا بها أولا لأنها ديانة المحتل، وثانيا لأنها بعيدة عن الانغلاق اليهودي، فالمسيحيون يبذلون الجهود لتنصير غيرهم، وجعل ديانتهم تظهر وتعلو وتغزو العقول والقلوب والشعوب، وحتى الملوك البرابرة والرؤساء المحليون كانوا متشبثين بمسيحيتهم مدافعين عنها، والتاريخ يذكر كثيرا الأمير كسيلة البربري، والكاهنة داهيا التي أساءت السيرة حتى في

---

[6]- ابن خلدون، سابق، ص 143.

النصارى الذين كانوا "يستغيثون بحسان بن النعمان من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ضياعهم[7].

وقد بلغ بطشها وخرابها أن "خرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كبير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية"[8].

وفي هذا الإطار – فيما نعتقد – تجيء الرواية القائلة أن سبعة من قبيلة رجراجة قصدوا النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلموا لأنهم كانوا مسيحيين وكانوا يقرأون الإنجيل أو يسمعونه أو يفسر لهم فكانوا يعرفون أن عيسى النبي عليه السلام بشر به وكتب في الأناجيل.

و"قبيلة رجراجة إحدى قبائل المصامدة بالمغرب الأقصى، وحد بلاد المصامدة من النهر الأعظم المسمى أم الربيع الذي يهبط من جبال صنهاجة إلى البحر الأعظم وعليه قبيلتان من المصامدة إحداهما هسكورة والأخرى دكالة، وآخر بلادهم الصحراء التي يسكنها قبائل لمتونة ومسوفة وصرطة وهؤلاء ليسوا من المصامدة قال في المعجب فهذا حد المصامدة عرضا وحدها طولا من جبل درن إلى البحر الأعظم وقبائلها التي يطلق عليها الاسم هسكورة وصنهاجة ودكالة وحاحا ورجراجة ولمطة وحنفيسة وهنتاتة وهرغة وقبائل أهل تينمل وحول مراكش منهم هزميرة وهيلانة وهز رجة فهؤلاء يجمعهم اسم المصامدة"[9].

---

[7]- تاريخ إفريقيا والمغرب ص: 31، عن المغرب الأقصى/سابق، ص: 57.

[8]- نفسه، ص: 57.

[9]- رجراجة وتاريخ المغرب -محمد السعيدي الرجراجي، ص: 7 ط 1، عن المعجب والكانوني.

إخفاق متواصل:

والتغلغل المسيحي بإفريقيا ومنه المغرب كان فارضا مركزه وسيطرته، والكنيسة المسيحية الكاثوليكية مثلت دائما خطرا أكيدا ومستمرا على مصالح الوندال المعتقدين أنهم الوارثون للرومان سلطة وعقيدة واعتداء وتعنتا الشيء الذي جعلهم والسكان الأصليين في عراك واقتحام وأخذ ورد مما أضعف الوندال وشتت جهودهم وأفسد عليهم أمرهم وبالتالي هيأهم للسقوط.

"وعندما اتضح إخفاقهم وعجزهم عن فرض سلطتهم على مجموع التراب المغربي، طلبت الكنيسة بإلحاح من إمبراطور الشرق أن يبعث بحملة عسكرية ووعدته بمعجزة ربانية وكانت فعلا معجزة سنة 533 عندما جاز الجيش البيزنطي البحر وانتصر انتصارا لم يكن يتوقعه حتى قائده بليزار"[10].

والملاحظ أن المسيحية – وقد كانت لها دول حكمت المغرب – لم تستطع توحيد المغاربة في كيان واحد، ولم تستطع حتى تقريب الشقة بينهم، ولم تستطع أن تحافظ على مصالحهم – وإن كانوا مستعمرين بالفتح – فلهم ذاتيتهم وتركيبتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحياتية، ولم تستطع مرة رابعة أن تصهرهم في نظم الإمبراطورية المختلفة التي مهما تكن وسائل العنصرية موجودة فيها، فقد كان مفروضا فيها أن تعمل على تطبيق: المغلوب يتأثر بالغالب ويسير على منواله، ويكون ذيلا لرؤاه ومشاريعه... فعاشوا في قلق واضطراب وفتن وانزلاقات ومحاربة وترقب من جهة وفي: "معضلات من انشقاقات داخل الكنيسة وثورات داخل الجيش وحزازات بين أعضاء الإدارة

---

[10]- مجمل تاريخ المغرب / سابق - 106.

المدنية"[11] الأمر الذي أجج الصراع بين الحاكمين والمحكومين وبين الحاكمين أنفسهم حيث طغت المصالح الشخصية، وأهمل الكيان الإمبراطوري الذي بقي متأرجحا إلى أن جاء الإسلام فحرر البلاد والعباد، وقضى على ما كان يرزح تحته الناس ويشكون منه.

---

[11]- نفسه / 107.

الفصل الثاني

المغاربة بين الشخصية الوطنية والسلطة المشرقية

مدخل:

يكاد يتفق الكل على أن المرحلة الأولى لـــدخول المغاربـــة في الإسلام مرحلة يلفها كثير من الاضطراب والغموض والقيل والقـــال. وفعلا فإنها كذلك، خاصة وأن المؤرخين يبدأون من مجيء عبد الله بن أبي سرح سنة 25هـــ / 646م ليركزوا على قدوم عقبة بـــن نـــافع الأول والثاني لينطلقوا مع الولاة ومع الأحداث دون أن يلتفتوا إلى الـــسنوات الأولى لظهور الإسلام بالمغرب، وكيف ظهر؟ وحتى مـــا ركـــز عليـــه المؤرخون يحتاج إلى تمحيص كبير وتتبع قوي لأن فجوات واســـعة بـــه جعلت المهتم يقف موقفا فيه من الشك أكثر مما فيه من اليقين، فأغلبيـــة المؤرخين اكتفت بما هو موجود ومتبادل ورددتـــه بمختلـــف الـــصيغ الكلامية.

قبيلة لها سبقية:

من ضمن هذه الفجوات التي أهمل الحديث عنها تقاعـــسا أو عمدا ما جاء عن كثير من المؤرخين من كون سبعة رجال من رجراجـــة

رحلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا على يده وزودهم بكتاب ورجعوا ينشرون دين الله.

ويجب أن نشير إلى أن حديثنا عن هذه القبيلة هنا أوجبته عدة أسباب:

- نعت المؤرخين إياها بالسباقة للإسلام وبالمجاهدة في سبيله مع من تحالف معها.

- انطلاقنا في البحث مما قيل عنها يمكن أن يوصلنا إلى نتائج كنا نجهلها.

- إن شاكرا (سيدي) شيكر رجراجي وأبوه هو يعلى الصحابي.

- إن الرباط يقع ضمن الرقعة التي كانت تعرف ببلاد رجراجة والتي هي كما في مقدمة تحقيق كتاب التشوف: "وأما ركراكة فكانت تشمل في ذلك العصر منطقة واسعة بين دكالة وحاحة ومعظمها جنوبي وادي تانسيفت، يحدها البحر غربا، وتدخل فيها منطقة وادي شيشاوة، وتشمل جزءا على الأقل من منطقة متوكة الحالية التي هي مركزها بوابوض، ويستفاد من التشوف أن قاعدة ركراكة في عصر التادلي كانت هي أكوز"[12]. والرباط ضمن منطقة شيشاوة.

شهادات من التاريخ:

"رجراجة هذه القبيلة هي مقر السادات الرجراجيين المشهورين بالمغرب وبالأخص بقبيلة الشياظمة، حيث توجد أضرحة أسلافهم، وقبيلة رجراجة التي ينتسب إليها هؤلاء الأفاضل تستقر بجنوب نهر تانسيفت وكان لها فضيلة السبقية إلى الإسلام في عصر ظهوره كما

[12]- التشوف إلى رجال التصوف – ابن الزيات التادلي – تحقيق أحمد التوفيق – مقدمة المحقق.

كانت من أولى القبائل المغربية المناصرة للإسلام والمدافعة عنه وبالأخص عند ظهور برغواطة بتامسنا. واشتهر منهم سبعة رجال هم المعروفون برجال رجراجة"[13]، "وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا من الصحابة ومنهم سبعة رجال ساداتنا رجراجة رأوه ورووا عنه وآمنوا به"[14].

خلط عم الكثير:

إذن هذه القبيلة أنجبت الكثير من أهل الخير والفضل والسبق، لإعلاء كلمة الله معلنين الدعوة مساهمين في تحرير العقل من البدع والجهالات، والخرافات والضلالات، متقدمين الصفوف لتكون كلمة الله هي العليا.

وقيام هؤلاء بأدوارهم لا يعني نفي أدوار أخرى للآخرين، ولكن القضية تبقى في السبقية للإسلام مما جعل هذه القبيلة تدعى مرة بـ "الولية" ومرة بـ "الأحرار"، وإن تنكر لها البعض.

وإذا كنا لا نعرف شيئا ذا أهمية قصوى في هذه المرحلة فالأمر سيان بالنسبة للقبائل التي تجاورها وتسمع بدعوتها وتحاول التعرف على ما عندها من جديد، وتعضدها إن كانت موافقة لها أو تناوئها إن كانت مخالفة، وكل ما نعرفه أن عقبة وجد الرجراجيين مسلمين فبنى لهم مسجدا، فكيف أدوا واجبهم قبل عقبة؟ وما وسائلهم؟ وكيف تصرفوا مع مخالفيهم؟ وما هو المجال الذي تحركوا فيه؟ وكيف استقبلوا عقبة واستقبلهم؟ ثم ألم يكونوا قادرين على بناء المسجد إلى أن جاء عقبة؟ وما السبب أو الأسباب؟ هل هي مادية؟ هل هم مستضعفون وسط بحر من

---

[13]- كتاب المغرب / الصديق بن العربي ص: 144 ط: 3- 1404 / 1984.

[14]- المثلث للجزولي عن السيف المسلول – عبد الله السعيدي الرجراجي، ص: 28، ط البيضاء.

الكفار؟ وهل كان المؤرخون يعبثون حينما أسندوا لكـل واحـد مـن السبعة مهمة يقوم بها؟ فمنهم الرئيس الذي يصدر الأوامر، ومنهم مـن يفتي في الأمور الدينية، ومنهم صاحب المشورة، ومنهم ضارب الطبـل للجهاد، ومنهم صابغ أثواب المجاهدين...

وتبقى أسئلة في مستوى هذه الملقاة:

هل هي عملية لطمس جهادهم ضد البرغواطيين؟ ولصالح من؟

هل هي سياسة الولاة الأمويين بغية حجب دورهم ليبقوا هـم سادة لدى البلاط الأموي؟

هل هو التنافس القبلي والقول بأن المعاصرة تذهب المناصرة؟

كل ذلك ممكن... ولكن التاريخ دائما في حياة مستمرة.

المغرب وعقبة والولاة الآخرون:

رددنا كثيرا أن المغرب قبل حلول عقبة به كان مضطربا غايـة الاضطراب، وسواء حل للمرة الأولى سنة 46 أو 50هـ أو 62 للمرة الثانية، فإنه وجد الأمر في غاية السوء، وهذه الفترة يمكن أن تقسم إلى فترتين:

أ- فترة عقبة ومن سبقه ومن أتى بعده إلى زهير بـن قـيس البلوي، وكانت فترة لولاة قادرين مقتدرين، قريبين نوعا ما من العصر الراشدي حيث بنوا المدن وساسوا الناس وفتحوا وغزوا وتقدم عقبة في البلاد "وانضاف إليه مسلمة البربر فكثر جمعه"[15] وتابع سيره حتى وقف بجانب البحر بمدينة آسفي، ولا شك أن من مسلمة البربـر رجـراجيين وغيرهم من قبائل أخرى.

ب- فترة ثانية مبدوءة بزهير المذكور ومختومة بحنظلـة بـن صفوان، وكانت فترة صعبة جدا، إذ لم يكن الولاة في مستوى واحد لا

---

[15]- الاستقصا 69/1.

من ناحية القيادة ولا من ناحية الشعور بالمسؤولية، ولا من ناحية التعامل مع المواطنين حيث أذلوهم وتعسفوا بهم، فذر قرن الفتنة، وتوالت تلك الحروب والثورات التي ما تخمد واحدة حتى تشتعل أختها.

"نقل ابن أبي الرقيق أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد ابن عبد المالك أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس، فكتب إليه عبد المالك ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمة"[16].

ونقل صاحب كتاب إفريقيا والمغرب قولة هشام بن عبد الملك الدالة على عصبية ونفاذ صبر ورغبة في انتقام نموذجي من أهل المغرب بعد موقعة (الأشراف) التي أبيد فيها الجيش الأموي برمته وعلى رأسه قائده خالد بن حبيب، قال أمير المؤمنين: (والله لأغضبن عليهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي)[17].

وكان حريا به أن يصف غضبته بالقوية حتى لا يثير مكامن عصبية لم يقض عليها نهائيا حسب ما جاء به الإسلام خاصة والقوم ما زالوا في عهودهم الأولى.

وهناك من المؤرخين من يريد لي أذرع البرابرة بكونهم ارتدوا عن الإسلام اثنتي عشرة مرة كأن يقدح فيهم وفي إسلامهم.

والواقع أن ارتدادهم له محددان اثنان:

الأول: أن وعودا كثيرة أعطيت لهم من قبل القوات التي كانت تستعمرهم سابقا فأخلفتها وطبقت عليهم سخائمها من خسف وهوان وقتل وحرق وبتر وبقر للبطون فاعتقدوا أن هؤلاء الجدد مثلهم.

---

[16]- ابن خلدون (سابق / 139).

[17]- المغرب الأقصى والمملكة البرتغالية / سابق / 109.

الثاني: الاضطهاد الذي مارسه عليهم الولاة الأمويون، فكان الظلم والتعالي والاحتقار والتنكر، وهل هناك مثل يقدم في هذا المجال أكثر من مثل طارق بن زياد وموسى بن نصير الذي أكلت قبله الغيرة لأن طارقا فتح الأندلس سنة 93هـ / 711م، دون أن تكون لموسى يد في الإنجاز، وبرغم ما أبداه طارق لموسى من دماثة خلق قائلا له: "إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك"[18]، فقد أبدى موسى رعونة وضيقا "فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله"[19] و"ضربه موسى بالسياط على رأسه ووبخه"[20]، مع أن الجيش الذي فتح الأندلس كان أكثر من ثلاثة أرباعه برابرة مسلمون.

القبائل البربرية وسياسة الخوارج:

"نلاحظ أولا أن العرب الذين أتوا إلى المغرب لم يكونوا كلهم يعطفون على بني أمية، بل كانوا في الغالب كالفقهاء ناقمين عليهم، ثانيا، كان عدد كبير منهم يعتنق عقيدة الخوارج. لماذا؟ لأن هؤلاء بعد التحكيم انقلبوا على علي، وحاربوه محاربة شديدة ومع مرور الأيام وقع تقارب بينهم وبين الأمويين غير أن هؤلاء لم ينسوا أبدا أن الخوارج أهل خصام وجدال، فكانوا يشجعونهم على الجهاد، وهكذا جاءوا بكثرة إلى المغرب يحملون لواء الورع والتقوى والإيمان الراسخ، وفوق كل هذا ينقمون على سكان المدن حياة اليسر والبذخ"[21].

ومن هنا بدا تمازج العنصرين العربي والبربري.

ومن هنا اختلفت النظريات وتشعبت الآراء.

18- فتوح إفريقيا والأندلس 7- عن المغرب الأقصى.

19- نفسه.

20 – نهاية الأرب / 207 عن المغرب الأقصى.

21 - مجمل تاريخ المغرب / سابق 142.

وهكذا تكونت إمارات قليلها سني وكثيرها خارجي، بعضها عربي، وبعضها بربري، وبعضها قيل عنه من ذرية شمعون بن يعقوب بن إسحاق.

وكانت هناك إمارة النكور وإمارة سبتة وسجلماسة ومكناسة كما كان الصفرية والأباضية والشيعة والمعتزلة والعبيديون والأمويون ليتوج الكل بالشرفاء الأدارسة.

وانتقل المسرح المشرقي بتدافعاته ومشاكله وإغراقاته وتناقضاته للمغرب.

"وسواء بالمغرب أو بإفريقيا والأندلس، فمن المعلوم أن ثورة الخوارج الصفرية بقيادة ميسرة المطغري سرعان ما دبت دبيب النار في الهشيم مما أسفر عن اختلال سلطان بني أمية بمجمل الجناح الغربي لدار الإسلام، وهو ما أشارت إليه الحوليات التاريخية بالقول، وما لبث أن وثب كل قوم من البربر على من يليهم"[22].

نتائج كارثية:

وكان لهذه الثورات أثرها السلبي على كل شيء... فقد أفقدت المغرب استقراره السياسي وهو أهم خطوة في الاستقرار الحياتي. وتفرقت البلاد أحزابا وشيعا. واختلفت الآراء والمصالح، وتشعبت الطموحات، وأصبح الكيان كله متأرجحا بين النزعة الانفصالية التي لا تعترف إلا بحدودها ومكوناتها والسائرين في ركبها، وبين نزعة إقليمية ترى الانفصال الجزئي عن الخلافة بدمشق أولى بالاتباع... فإذا تحسنت أخلاق الولاة واحترموا الحريات وطبقوا العدالة التي جاءوا من أجل أن يتمتع الناس بها كان هذا أضمن للتعاون وللاستفادة من ميكانيزمات الدولة القطب... وأفقدته كذلك الاستقرار الاقتصادي الذي كان

---

[22] - نفسه / 106.

مزدهرا قويا وقد رأينا سابقا كيف كانت الناحية من طنجة إلى طرابلس كأنها هي التي عناها الله بقوله الكريم "(جنتان عن يمين وشمال)"[23]. بل إن هذه الخيرات العظيمة هي التي سولت لنفس (داهيا) بأن العرب ما حلوا بالمغرب إلا من أجلها كما فعل من سبقوهم فعاتت فيها تخريبا وإفسادا وتحريقا.

وأفقدته كذلك الاستقرار المجتمعي والتواصل القبلي والانضباط الذي كان للبرابرة وتلاحمهم وتعاونهم وتصلبهم لرد المعتدي، وبالتالي أفقدهم القدرة على الموازنة بين ما هو ديني صرف بعيد عن كل شائبة، وبين ما هو مزيج من تمثلات وترهات وأقوال كهنة وسحرة، وأصوات لخفافيش لا تنشط إلا في الظلام.

وفي جو مثل هذا لابد أن يغيب كذلك الاستقرار الأمني والنفسي والعاطفي والأسري، وأصبح الكل يعيش على ما تأتي به الأحداث وما تتلقفه الأسماع. وما تتهامس به الشفاه، وما تثيره الدعايات من خوف وفرق وخشية، وغدا الترقب واللاتوازن واللاانضباط عملة رائجة.

وهذا يحدث في كل زمان ومكان حينما تغيب آليات معروفة، ونوابض قوية.

---

[23] – سورة سبأ من الآية الكريمة 15.

الفصل الثالث

الرباط الشاكري بين الالتزام الرجراجي والانحراف البرغواطي

من هو شاكر (سيدي شيكر)؟

"ذكر ابن عذاري المراكشي في كتاب البيان المعرب في أخبار المغرب نقلا عن الإشبيلي في مسالكه، أن عقبة ابن نافع لما دخل المغرب كان معه ثمانية عشر من الصحابة وسائرهم من التابعين، وأنه ترك بعض أصحابه يعلمون الناس القرآن والإسلام منهم شاكر وغيره"[24].

"قد ذكر الفقيه السيد عبد الكبير بن عبد الكريم الشاوي ثم المراكشي في جوابه في صحبة الرجال السبعة وكذلك المرغيتي في جوابه أن شاكرا هذا ابن السيد يعلى بن مصلين الرجراجي، وهذا إن صح يحمل على أنه رحل إلى سيدنا عقبة إلى القيروان ثم دخل معه المغرب فأطلق عليه أنه من أصحابه، ولا غرابة في هذا لقدم الإسلام في رجراجة"[25]. "... وهذا الموضع صار يعرف فيما بعد برباط شاكر

---

[24] - الكانوني محمد بن أحمد العبدي – الياقوتة الوهاجة في مفاخر رجراجة / مخطوط.

[25] - الكانوني محمد بن أحمد العبدي – الياقوتة الوهاجة في مفاخر رجراجة / مخطوط.

ويسميه العامة اليوم في تلك الجهة "سيدي شيكر" وهو شاكر بن يعلى بن واصل الرجراجي، قال أبو العباس الناصري في الاستقصا 115 ج 4 ووقع في التشوف أن شاكرا الذي ينسب إليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب وأنه هناك هـ ونقل أبو علي اليوسي في المحاضرات من التشوف أيضا أن يعلى بن مصلين الرجراجي بناه أي الرباط، وكان يقاتل به كفار برغواطة مرات وأن طبله هناك إلى الآن هـ[26].

"ومن هو شاكر في النهاية؟"

أليس بن يعلى بن يصلين أحد الرجال السبعة فيما صرح به الإمام بن سعيد مؤلف كتاب المقنع وكذا صاحب العيون المرضية وصاحب رباط شاكر الشيخ عبد الحي الكتاني، وقد رددنا هذا الكلام مرات، بل إن البو محمديين الذين يرأسهم السيد عبد القادر بن قاسم الرجراجي الدكالي أقاموا دعوى شرعية بطلب فتوحات جدهم شاكر بحجة أنهم أبناء يعلا من ولده شاكر في أيام السلطان المولى يوسف رحمه الله، وتولوا ذلك بما لهم من مواجب وحجج[27].

ومن أحفاده كذلك أبو محمد خميس المعروف بسيدي محمد بن مرزوق، وهو كشمس في يوم صاف، وترجمته سواء في التشوف أو العيون المرضية أو الياقوتة أو السيف المسلول تنبئ على أن من كان جده شاكر بن يعلى لابد أن يكون كذلك، وكثيرا ما يقتصر الباحثون في شاكر على ذكر اسمه مكتفين بنعته من أصحاب عقبة، والحقيقة كما يؤكدها كثيرون أنه رجراجي مغربي وليس ازديا ولا حضرميا ولا خزرجيا ويستخلص من هذا كله:

---

[26] – أشرف بقعة وأقدس – عبد الحي الكتاني – مجلة المغرب، سابق.

[27] – السيف المسلول / سابق 205.

أن شيكر مغربي من قبيلة رجراجة المعروفة.
أنه بن ليعلى المذكورة في حقه الصحبة لأنه واحد من السبعة.
أنه تزوج وولد وكان وحيد والده.
أن أحفاده منتشرون في الناحية منهم الذين ذكرنا ومنهم الذين لم نذكر كسيدي حمو بن حسين وأخيه سيدي سعيد بالشياظمة وسيدي بليوط (أبو الليوث) بالبيضاء وسيدي حسين بمزوضة بناحية مراكش.

والشيخ شاكر بن يعلا يصفه الكانوني هكذا: "هو الصالح الشهير، القدوة الكبير، الفقيه التابعي الجليل، ذو المجد الأثيل، ناشر شرائع الإسلام والدين، ومشيد صرح الإسلام والمسلمين، المنقذ من الضلال المبين، الداعي إلى عبادة رب العالمين، السيد الذي اشتهر أمره بالمغرب اشتهار الشمس في رابعة النهار، وظهر فضله ظهور علم أو منار، وناهيك بفخامة شأنه، وعلو رتبته، كونه من سادات فقهاء التابعين الذين التقوا مع صحابة سيد المرسلين".

"فإذا ثبت أنه من أصحاب عقبة بشهادة التاريخ، وثبت أنه كان مع عقبة العدد الكثير من الصحابة ثبت بذلك أن السيد شاكرا رضي الله عنه من التابعين بلا مرية لأنه لا يتصور عادة أن يضمه والصحابة جيش واحد من أدنى المغرب إلى أقصاه بل إلى الصحراء ولا يجتمع بصحابي ولا يراه، هذا ما لا يعتقده ذو عقل سليم، هذا إن لم نقل باحتمال صحبته لأن الصحابة لم يطلع أحد من الأئمة على عشر عددهم كما بينه ابن حجر في طالعة الإصابة، ولهذه المزية العظيمة الثابتة لهذا الإمام الجليل جعل رباطه مقصدا لصلحاء المغرب"[28].

---

[28] – الياقوتة / سابق.

ما الخط الرابط بين شاكر وعقبة:

وكما نعرف وكما يقول التاريخ فإن جيش عقبة بالمغرب كان يضم الأفذاذ من الرجال الأبطال، والمجاهدين الكبار، والبائعين نفوسهم لله بيع السماح.

فلماذا خص شاكر بصحبة عقبة؟

ولماذا تركه خليفة عنه بهذه الديار؟

الجواب القريب هو أن الاختيار تم لعدة فضائل متوفرة في شاكر ولشخصية قوية متزنة، كان لها أثرها على من حولها، سلوكا ورصانة وأمانة وعلما وإسلاما واستعدادا، ولروح صافية ونفس مزكاة، وصوفية عالية تحلى بها وهدته ليتقدم الأقران والصفوف.

هذا على المستوى المنظور، ولكن ألا تكون هناك نظرة أخرى رآها عقبة الصحابي الذي قالوا عنه أنه ولي صالح مجاب الدعوة؟ ألا تكون هناك نظرة فاحصة اخترقت حجب الغيب لتدرك أن شاكرا هو المؤهل ليؤدي دوره العظيم في ذلك المكان المقدس منذ بني الرباط إلى الآن مع اختلاف في العسر واليسر حسب الظرف والحال.

هل في الأمر شيء انطلق من داخلية قلب مؤمن في مقام الأبوة ليستقر في داخلية قلب مؤمن في مقام البنوة، كما هو الشأن بالنسبة للشيخ والمريد؟

إن الذي يجيب على هذا التساؤل هو الإقبال الذي توافر للرباط، والسمعة الحسنة التي لم يستطع توالي الجديدين أن يمحوها أو حتى أن يسدل عليها سحائب رقيقة من الشك والتنكر واللامبالاة، والحب الذي له في نفوس قاصديه.

حقيقة أهمل الرباط كما أهمل الضريح كما أهمل المسجد في فترات متعددة وذلك خضوعا للحالة التي يكون عليها الوضع بالبلاد،

ولكنه لم يفقد وهجه ولا نضارته ولا إشراقته، إذ بمجرد ما تهدأ الحالة ويستقر الأمن وتسود الطمأنينة يرجع الأمر إلى ما كان عليه، ولعلنا نشير إلى ذلك من خلال ما يلي:

إهمال وإصلاحات:

1- إن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما أنهى زيارته لرجراجة سنة 1178هـ مر في أثناء رجوعه على الرباط فلاحظ ما أصابه من إهمال حتى تداعت جدران المسجد، "زار هذا الرباط وأمر بتجديده وحفر أساس مسجده من أصله، ثم بنائه، فبني كما ينبغي ولازال الناس من قديم يتعهدونه بالإصلاح والترميم إلى الآن"[29].

2- "ولقد كان الأمراء يتولون إصلاح هذا المسجد الأثري العظيم، فقد نقل صاحب سلسلة الذهب المنقود، بواسطة سيدي عبد الرحمان بن سيدي عبد القادر الفاسي عن تأليف لصالح بن أبي صالح في القبلة وعد المساجد القديمة وقال منها المسجد المنسوب إلى عقبة بن نافع الفهري على واد نفيس بقرب دكالة كما كتبناه مرارا"[30]، "وفي الماضي القريب التفت إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما رجع من وقوفه على مدينة الصويرة التي من منشآته سنة 1171 فمر برجال رجراجة متفقدا زواياهم ومدارسهم وممدا إياهم بالكتب والصلات، فعرج على هذا الرباط الأثري، وأمر بتجديد مسجده وتشييده بعد حفره من أساسه كما في الجيش والاستقصا"[31].

3- كتب الشيخ عبد الحي الكتاني: سنة 1341 "ولما رأيت إذ ذاك من إشراف المسجد على السقوط وتداعيه للهبوط، آلمني ذلك،

---

[29] – نفسه.

[30] – السيف المسلول / سابق 314.

[31] – نفسه.

فقاربت الخطى للرباط حيث السلطان المعظم المأسوف عليه المولى يوسف بن مولاي الحسن رحمه الله فقصصت عليه خبر المسجد المذكور، والرباط، ومدفن شاكر، وأبيه يعلى الرجراجي"[32].

4- وكتب كذلك: ثم زرت هذا الرباط أول سنة 1354 فوجدت أن يد بعض الإصلاحات قد عملت فيه همة أكبر قواد تلك الناحية الناسك الذاكر المتعبد القائد العربي ابن الكوش نفعه الله بذلك، وأخبرني هو وغيره أن السلطان العظيم الشأن المولى الحسن ابن محمد كان ينتاب هذا الرباط كثيرا، وأكثر زياراته كانت على طريق الخفاء مريدا بذلك التعبد والانزواء من الضوضاء والجلبة، ونحن بغاية الممنونية نلقي طلب إحياء هذا الرباط وتجديد معهده على عتبة الأعتاب السلطانية والمراحم الملكية المحمدية لألفتن نظرها الشريف إلى بقعة أثرية جالت فيها يد الهدم والتخريب ومسجد أشرف على السقوط أو كاد بعد أن هيا البنيان، وصوح سياط المدنية واندثر، ولم يبق لها من أثر"[33].

5- وقد زرت هذا الضريح سنة 1403 هـ/1983م، وتألمت فعلا لما عليه حالة الضريح والمسجد خصوصا وهو جماعة قروية وبه سوق كبيرة، ولقد لفتت نظر السيد عامل إقليم آسفي، وقيل لي: إن إصلاحات مهمة بوشرت فيه وفعلا كان ذلك"[34].

6- وقد وفقت العناية الإلهية أمير المؤمنين محمد السادس، فأعطى أوامره السامية ليعود لرباط شاكر وضريحه مجده وأصالته في تجمهر كبير سمي: بملتقيات سيدي شيكر للتصوف"، وقد تم اللقاء الأول صيف سنة 1425 هـ/ 2004م، فكان نجاحه مؤكدا وكبيرا، ونتمنى أن

---

[32] - نفسه.

[33] - نفسه.

[34] - رجراجة وتاريخ المغرب / 18 وانظر هامش رقم 1 من ص 315 بالسيف المسلول.

تتابع الخطوات وتبذل الجهود المباركات حتى يحقق بكل جد ومسؤولية ما أمر به أمير المؤمنين.

الوالد المجاهد:

ويعلى الوالد، أليس من أولئك السبعة النابتين في أرض مغربية معطاء، متأصلة الجذور، متماسكة الفروع، وإذا كنا لا نعرف عن أجدادهم كثيرا سوى ما نقلته الكتب ولا تتفق دائما شأن كثير مما اشتكى منه العديدون من أرباب الفكر والقلم، فإننا نعرف أن يعلى الوالد هو واطل (أو واصل) أو (مصلين) بن طلحة بن إسماعيل بن مروان ابن علقمة، وتقف معرفتنا عند هذا العلقمة، ولو توفر لنا بصيص من معرفة أخرى غير ما نعرف عن جدود السبعة الرجراجيين لانفسحت أمامنا آفاق كثيرة للبحث والتوثيق كما هو الشأن بالنسبة للسبعة المراكشيين.

إن السبعة الرجراجيين لا يبعدون كثيرا عن السبعة المراكشيين، ولكننا نجد بينهم فروقات متعددة مهمة منها على سبيل المثال:

- الرجراجيون صحابة والمراكشيون ليسوا حتى تابعين فأقدمهم موتا كان في العهد الموحدي وأحدثهم في العهد السعدي.

- رجال رجراجة من قبيلة واحدة مصمودية معروفة الجبال والتضاريس والحدود والإنسان عكس المراكشيين الذين هم من أصول متعددة.

- رجراجة متفرقون في أماكن من القبيلة أما المراكشيون فكلهم بمدينة مراكش رغم أنهم متوزعون على حوماتها.

- الرجراجيون عاشوا في بيئة بدوية سهلة ساذجة، وربما كان عملهم ضئيلا يتمثل في حفظ كتاب الله أو أجزاء منه بينما المراكشيون

ضمتهم مدينة ساحرة جميلة، وفيهم العلماء والمحدثون والشعراء والمتصوفون.

- مواسم السادات الرجراجيين مازالت تقام بمسافة تقارب الستة أسابيع، وغير هذه التي للسادات بمراكش حيث ذالت وتنوسيت، ولم يبق منها إلا ذكرى وأحزاب لأصحابها تتلى بأضرحتهم.

- الرجراجيون يعرفون بالمجاهدين الأحرار، والمراكشيون بالعلماء والمتصوفين.

- الرجراجيون من أسر قريبة من بعضها، فهم إخوة وبنو عمومة وجوار. فيعلا الذي قلنا أنه ابن واطل بن طلحة بن إسماعيل بن مروان يلتقي هو وواسمين ابن يعزى بن مهدي بن إسماعيل بن مروان.

وسعيد السابق الذي هو بن كهيل بن زياد بن أرتن هو أخ لعيسى بوخابية بن كهيل، وأبو بكر أشماس هو بدوره أب لصالح وهما من عكرمة بن عتيق بن أبي خالد بن أمج. ويبقى عبد الله أدناس وهو بن عامر بن دائم بن مجاهد بن أردن، رضي الله عنهم أجمعين أما الذين بمراكش، فإذا استثنينا السبتيين القاضي عياض وأبا العباس أحمد الخزرجي، وجدنا أنفسنا أمام رجال لكل واحد مهيعه وأصله وفصله.

ورغم أن الرجراجيين يدخلون ضمن النطاق البربري الواسع الذي كان يشمل طرفاه الشرق الأوسط وأوربا فإن الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله يقول: "يطلق المؤرخون الغربيون بربار **BARBARES**، أي المتوحشون، على الأفارقة الشماليين، وقد لاحظ فريجوس **FRUJUS** في رحلته عام **1666**م، أن المغاربة ليس لهم من البربرية إلا الاسم (دوكا ستري - الفيلاليون - السلسلة الثانية ا ص **123**)"[35].

---

[35] - المعجم التاريخي - مطبعة الجامعة - البيضاء / 14.

نفيس المدينة الخالدة:

"وأما ركراكة فكانت تشمل في ذلك العصر منطقة واسعة بين دكالة وحاحة ومعظمها جنوبي وادي تانسيفت، يحدها البحر غربا، وتدخل فيها منطقة وادي شيشاوة وتشمل جزءا على الأقل من منطقة متوكة الحالية التي مركزها بوابوض، ويستفاد من التشوف أن قاعدة ركراكة في عصر التادلي كانت هي أكوز"[36].

سبق لنا أن أتينا بهذا النص، ولكننا نعيده لأنه يعطينا خريطة تقريبية للناحية التي نتحدث عنها، فنفيس تقع في منطقة واد شيشاوة، وكان لهذا الوادي دوره إضافة إلى الدور الذي يلعبه الوادي الحامل لنفس المدينة، وقربها من مراكش ومن آسفي حيث تقع الآن ضمن نفوذها الإداري أعطاها نكهة خاصة... وكذلك كانت تكون هي وأغمات ومرامر وأكوز رباعيا متكاملا ليس من السهل تخطيه لما يقوم به من أدوار كبيرة على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإنسانية، وكان لنفيس دور آخر بارز بين أخواتها إذ تقع في الوسط وكل الطرق تصب فيها.

حينما يتحدث عنها التاريخ لا يقول إلا خيرا، ودورها في حركية الدولة المرابطية وقيامها معروف في العمل بجانب الدولة الجديدة، حتى ركزت سلطتها ووطدت مكانتها يقول صاحب الاستقصا وهو يتحدث عن أبي عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم الكدالي" فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن إبراهيم: "إني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا أخذ عني علما كثيرا، واسمه واجاج بن زلو اللمطي

---

[36] – التشوف، سابق.

من أهل السوس الأقصى أكتب إليه كتابا لينظر في تلامذته من يبعثه معك، فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده"[37].

"فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج في الكتاب، "ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي"[38].

يقول الإدريسي: "ونفيس مدينة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائلها المنسوبين إليها، وبها الحنطة والفواكه واللحوم ما لا يكون في كثير من البلاد غيرها، وبها جامع وسوق نافقة، وبها من أنواع الزبيب كل عجيبة من جمال المنظر وحلاوة الذوق وكبر المقدار وهو مع ذلك كثير جدا مشهور العين في بلاد المغرب الأقصى"[39].

"يقول الكتاني: ولكن بالقرب من مدينة مراكش بقعة إن لم تكن أفضل بقاع تلك الأرض، فمن أفضل بقاعها وأولاها بالاعتبار والعناية والبحث".

في فسيح مهيب واسع الخطى يضل فيه الماشي ويستوحش فيه الأنيس، بعيدا عن الرائي والمتأمل.. ذكريات بلاد العرب إن كان رآها وقرأ عنها، وصحراء إفريقيا الكبرى وشاسع أطرافها، بقعة من أقرب البقع التاريخية إلى مراكش مسافة، ويكاد يجهلها الجيل الحاضر تماما.

---

[37] -الاستقصا ص 6

[38] - الاستقصا سابق ص 7

[39] - مذكرات من التراث المغربي - المجلد 2، ص 210/ 1984.

كانت هذه البقعة في التاريخ الغابر أشهر من (قفا نبك) حيث كانت محط نظر عقبة ابن نافع الفهري في وقت الفتح الإسلامي – على عهده – ومركز جيشه.

وكانت عاصمة الإسلام في المغرب إذ ذاك وقل عاصمة المغرب الإسلامي بقعة كان جيشها وقائده يرجع أمرهما إلى عاصمة جلق، ومن جلق تستمد الأوامر والنواهي وقتما كانت دمشق عاصمة لمعاوية بن أبي سفيان وكانت منتهى حكم دمشق الشام ونهاية نفوذ دمشق، هي بقعة على مسافة نحو مائة ميل من مراكش على ضفة واد تانسيفت وكانت تعرف قديما بمدينة نفيس"[40].

قال أبو عبيد البكري: "وهي تعرف بالبلد النفيس كثيرة الأنهار والثمار، ليس في ذلك القطر أطيب منه ولا أجل منظرا، وهي قديمة أولية، غزاها عقبة ابن نافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بها الروم ونصارى البربر وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها فلزمها حتى فتحها وبنى بها مسجدا إلى اليوم وأصابوا غنائم كثيرة وذلك عام 62، وهي اليوم آهلة عامرة بها جامع وحمام وأسواق جامعة بينها وبين البحر مسيرة يوم، يسكنها قبائل من البربر أكثرهم مصمودة، وكان صاحبها حمزة بن جعفر الذي ينسب إليه السوق من بني عبد الله بن إدريس"[41].

وعلى ذكر بناء المسجد، فإن عقبة بنى ثلاثة مساجد كما يذكرون: مسجدنا هذا ومسجد أكوز ومسجد ماسة... ويظهر أن المسجد الأول هو الذي بنفيس وهو الذي بقي لحد الآن شامخا يذكر فيه اسم الله في كل وقت.

---

[40] – المواهب الربانية في ذكر مناقب الطائفة الرجراجية / سابق – مخطوط.

[41] – نفسه.

ويظهر أن حالة نفيس الإسلامية أصابها تدهور في تلك الفتن الماحقة والدعوات الباطلة خاصة من البرغواطيين حتى استوجب الأمر فتحها من جديد على يد المولى إدريس الثاني حسب أبي العباس أحمد بن خالد الناصري.

ولست أدري هل بنو نفيس الذين "أفردهم بالتأليف الوليدي العراقي في كتابه "الدر النفيس، فيمن بفاس من بني محمد بن نفيس"[42]، ينتسبون إلى قادم من نفيس أم لا، وإذا كان هذا صحيحا فيدل على ما لهذه المدينة ورجالها من أثر في الحياة من سياسية ومجتمعية على عهد الدولة الإدريسية وباقي المراحل التاريخية الأخرى.

شهرة نفيس من شهرة رباطها:

وريثما نرجع لرباط نفيس (شاكر)، نقول: إن هذه الربط لعبت دورا هاما في تثبيت الدين والقيم والمحافظة على الاستقرار المادي والمعنوي والنفسي والجسدي وأشاعت بين الناس مثل التواد والتراحم والتعاون، وأبعدت الأنانيات والذاتيات والمشاكل الجانبية، التي كثيرا ما قوضت العمل وهدت البناء، وأبعدت القلوب عن الدفاع والجهاد.

والمغرب متوفر على هذه الربط بكثرة توفره على الأولياء والصالحين والمتعبدين المتبتلين والذاكرين الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم. ومنها كنماذج:

- رباط وجاج بن زلو اللمطي: "ومنهم وجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم

---

[42] - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية - معلمة المدن والقبائل - ملحق: 2 ص 116 (1397-1977)، عبد العزيز بن عبد الله طبع وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية.

وقراءة القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به"[43].

ويكفيه أنه هيأ رجلا عظيما كعبد الله بن ياسين الذي كون دولة وأحيا أمة وحرر نفوسا وأضاء عقولا وأشاع فضلا ونشر علما.

- رباط عبد الله بن ياسين الجزولي: مؤسس دولة المرابطين، وقد اعتكف فيه حتى اجتمع عليه ألف من الصحراويين التائبين فخرج بهم للفتح والجهاد وقد كان من أهل الفضل والدين والورع والسياسة مشاركا في العلوم"[44].

- رباط أكوز: وهو من الشهرة بمكان لما كان فيه من متصوفة كبار ورجال جهابذة أحرار ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل بن وجما تيق الرجراجي المتوفى سنة 595، ويقال إن عقبة بنى للرجراجيين مسجدا بهذه القرية التي كانت مقرا للعامل وبها يجبى الخراج وبها سجن ومدرسة وجامع على ما في التشوف وبقيت حتى نهاية القرن السادس.

- رباط ماسة له شهرة واسعة وذكر كبير، يقع بإحدى جماعات دائرة تزنيت تحدث عنه كثير من المهتمين بالتصوف والإقبال على الله وتربية الناس.

- رباط فور: على بعد 25 ميلا من مرامر التي تبعد بثلاثين ميلا من شفشاون (شيشاوة) وهذه بثلاثين عن نفيس"[45].

- رباط سيدي إسحاق وهو قريب من الشيخ عبد الله أدناس أحد الرجال السبعة، وإسحاق هو ولد أبي إبراهيم السالف الذكر، وقد قالوا: إن كل خشبة من رباطه أو مسجده حملها ولي.

---

[43] - الاستقصا / سابق، ج 2 ص: 6.

[44] - نفسه / 7.

[45] - المغرب للبكري ص 154 - عن الموسوعة ج 1 ص 106.

- رباط أبي محمد صالح، المشهور برباط آسفي، وهو رباط عرفته المشارق والمغارب، وبه عرفت المدينة وانتشر ذكرها وفاح طيبها، كتب عنه الكثيرون كابن الخطيب السلماني وأحمد الحفيد والكانوني... ومازال يؤدي دوره بهمة واقتدار مقصودا كمزارة لها في النفوس حرمة ولصاحبه محبة وتقدير.

- رباط سيدي مكدول بالصويرة، ومكدول من رجال العهد المرابطي، وكان رجلا متصوفا مجاهدا ذاكرا عابدا، فهفت إليه القلوب واشرأبت إليه الأعناق.

- رباط طيط أو عين الفطر: بناه الشيخ محمد بن عبد الله الأمغاري، وكان رباطا كبيرا بساحة أزمور قرب الجديدة، آوى إليه الشيخ عبد الله أمغار الصغير كما في (ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع) لمحمد المهدي الفاسي.

وفي كتاب تنوير بصائر الأبرار، بأخبار طيط والإمام أبي عبد الله أمغار "دراسة مستوفاة عن هذا الرباط وأهله الشرفاء، ومنها هذه الرسالة المبعوثة من أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الشيخ أبي عبد الله أمغار نصها: "بسم الله الرحمان الرحيم، من أمير المؤمنين وناصر الملة والدين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الشيخ أبي عبد الله آمغار ولي الله، أكرمنا الله بتقواه، ويسرك للعمل بما يوافق رضاه من حضرة مراكش حرسها الله عقب ربيع الثاني سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وقد علمنا ما أنت عليه من الخير والدين والجري في أحوالك على نهج الصلاح المستبين، فاعتقدناك في الأولياء، ورتبناك في أهل الذكاء نادبين لك إلى اختصاصنا بخالص الدعاء، فاقسم لنا حظنا من ابتهالك في الأوقات المرجوة واعتمد فيه رسم المواظبة والصفاء، والله سبحانه يجعلنا ممن يوجب زلفاه وحماه بقدرة لا إله سواه، ولتبلغ سلامنا كثيرا جزيلا لأهل

طرفك وأهل بيتك الشرفاء الفضلاء ورحمة الله وبركاتــه"[46]. وهنــاك رباطات كثيرة لا يتسع المجال لذكر بعضها فأحرى استقــصائها، ولأن الغرض التعريف بشاكر ورباطه فيكفي ما أتينا به.

الرباط الشاكري معلمة مضيئة:

رغم ما يزخر به وطننا من رباطات عظيمة، شرف أصــحابها الوطن والإنسان، فإن رباط شاكر بنفيس يظل صاحب حظــوة كــبيرة سواء عند المريدين أو الزائرين أو أرباب الأقلام، فطوال قرون بقيــت الألسن تتحدث عنه وهفوا له الأفئدة والقلوب ويثني عليــه النــاس، ونادرا ما تجد كتابا يتناول تاريخ المغرب وتصوفه ودعوتــه ولا يــذكر الرباط ويتوسع وذلك لما قام به من أدوار جعلتــه دائمــا في الريــادة وصبغت الناحية كلها بصبغته، وجعلت العطر الفواح يغمرها والذكرى الجميلة تسعدها وتجعل منها ناحية لا تتأخر عن نواحي أخرى نورانيــة بهذا القطر الإسلامي المؤمن المليء بالزوايا والرباطات.

ومنها رباط شاكر، وهو مشهور، وكان مجمعا للصالحين مــن قديم ولاسيما في رمضان، يفدون إليه من كل أوب[47].

"وهذا الرباط أصله من مجامع السادات رجراجة، وقد سبق في المقصد الأول من هذا الكتاب أن السيد واسمين جمــع فيــه المــصامدة ودعاهم إلى الإسلام فصار من حينئذ مجمعا لهم، ولذلك، والله أعلــم، استقر به السيد شاكر ثم بناه السيد يعلى بن مصلين أحد الرجال السبعة ولم يزل من ذلك الحين مقصد الصالحين ومأوى الأولياء والعارفين"[48].

---

[46] – مخطوط في نسخة غير تامة بخزانة المؤلف(تأليف الفقيه الكانوني العبدي

[47] – الموسوعة سابق ص 205

[48] – الموسوعة سابق ص 205

"...أما في المغرب فلعل أول رباط من هذا النوع وقع تأسيسه هو رباط شاكر الذي وصفه ابن الزيات في التشوف بأنه (كان مجمعا للصالحين من قديم ولاسيما في رمضان يفدون من كل أوب)، وشاكر هذا من أصحاب عقبة بن نافع على ما ذكره ابن الزيات، والذي بنى الرباط هو يعلى بن مصلين الرجراجي وكان يقاتل كفار برغواطة، وهذا يدلنا على أن هذا الرباط كان مأوى للمجاهدين بقدر ما كان موئلا للزهاد"[49].

"... ولم يزل رباط شاكر هذا على اختلاف الأجيال والقرون تشد له الرحال من جميع نواحي المغرب وخصوصا قبائل الحوز في كل ليلة 27 من رمضان فتختم فيه عدة سلك من القرآن"[50].

"... وبالجملة، فالذي يرد اليوم على مشهد هذا الرباط الواقع على طرف واد نفيس يرى مشهدا مؤثرا وبسيطا ممتدا ومجاري ومناظر وترابا ونباتا وروابي أشبه شيء ببسيط ومناظر وتراب القيروان الذي به مسجد عقبة إلى اليوم"[51].

هذه النقولات ولها أمثال، تدل على المكانة التي اكتسبها هذا الرباط الذي هو من الآثار الإسلامية الخالدة بهذا البلد الإسلامي العتيد.

أدوار لرباط شاكر:

وتبعا لهذه المكانة كانت له أدوار مهمة تحققت به على أيدي رجال مؤمنين بقيمة ما يعملون، متشبثين بما به يؤمنون.

---

[49] – الكانوني في الياقوتة / سابق.

[50] – معلمة التصوف الإسلامي ج 1 ص: 90، عبد العزيز بن عبد الله.

[51] – الشيخ عبد الحي الكتاني / سابق.

1- دور تعليمي تثقيفي ديني:

لقد ألقيت بهذا الرباط الآلاف من المحاضرات والـــدروس في مختلف الأغراض والمقاصد، واعتلى منبره الجهابذة من الفصحاء والبلغاء والذين أوتوا الموهبة في العقل والتحصيل والتعبير، ولنا أن نتصور العدد الهائل من العلماء والمحدثين والمؤرخين وغيرهم الذين شرفوه وشـــرفهم منذ بني في القرن الأول الهجري إلى سنة 1341هـــ، حينما زاره الشيخ عبد الحي الكتاني وكتب عنه:

"وقد قصدت زيارة هذا الرباط عام 1341، وأقمت به مدة في ذلك البسيط الباهظ على ضفة ذلك النهر المنهمر، وأقرأت دروســا في هذا المسجد العظيم، الواسع في أكنافه الممتدة صومعته تناطح السحاب، وأمليت به دروسا حديثية حضرها أمم من تلك الأصقاع مـــن أتبـــاع الطائفة الكتانية وغيرهم من حمير وما إليهم"[52].

"ونقل في التشوف في ترجمة أبي محمد تليجي أنه كان واعظـــا برباط شاكر في وقت لا يصعد منبر شاكر إلا الآحاد، توفي التليجـــي، دفين باب الشعبة بطريق مراكش عام 605هـــ[53].

ولا شك أن معهده كان يحتوي على عديد من الطلبة، الذين يدرسون القرآن بقراءاته المختلفة، والحديث والفقه وكل العلوم الـــتي يطلق عليها علوم الآلة، إضافة إلى التصوف الذي يأخذه الطلبة من كل حجر، ومدر وشجر تحركها الرياح.

---

[52] – الشيخ عبد الحي الكتاني / سابق.

[53] – المواهب الربانية – سابق.

2- دور تربوي صوفي:

وهو المتجلي في الأعداد الكثيرة التي تقصده دائما منتشية بما تأخذه طالبة المزيد مما يزوده بها أهل الفضل والفضيلة تمشيا مع قولة القاضي الشيخ الطالب بن حمدون: "والحاصل أن الناس على قسمين كما قال أبو الحسن: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله"[54]، ولا أدل على ذلك من ذلك الموسم العظيم الذي قالت فيه إحدى الصوفيات ذات مرة (حضرت فيه ألف امرأة) دون عدد الرجال، بل إن بعض الروايات تخبرنا بأن الجن أيضا كانت تحضره و "في كتاب المنهاج الواضح عن الشيخ أبي محمد صالح ما هو أرفع من هذا وهو حضور عالم كبير من الجن لهذا الموسم فقد ذكر تلميذه يحيى قال: خرجت مع الشيخ في السفر إلى موسم شيكر فركب الشيخ رحمه الله دابته وكنت ماسكا بركبته، حتى إذا خرجنا من باب البلد وواجهنا ساحل البحر ما بين آسفي وواصل وإذا به كله خيمة على خيمة وخباء وقبة حتى لا ترى موضعا خاليا من ذلك، ففهم الشيخ عني فقال: يا يحيى، أيظن الناس أن موسم شيكر لا يأتيه غيرهم، كل ما رأيته مسافر نحو شيكر فعلمت حينئذ أن ما رأيت كان من الجن"[55].

3- دور اقتصادي تجاري فلاحي:

حيث كانت الحبوب نافقة بين نفيس وأغمات وبين أغمات وإفريقيا، وكانت الحبوب تباع بثمن بخس كما كانت الكروم تمتد مساحتها على تلال الريف، وساحل دكالة وتلال الشياظمة والسوس، وكانت الزياتين منتشرة وكذلك السكر الذي يقول عنه الزهري في

---

[54] –المواهب الربانية للفقيه عبد الله السعيدي الرجراجي.

[55] –الياقوته الوهاجة– سابق.

القرن السادس كان (يصدر إلى أوربا ويشحن إلى إفريقيا – تونس – وقشتالة وبلاد الروم وقسطنطينة وبلاد الغال فرنسا)[56].

4- دور جهادي نضالي:

وتجلى بالخصوص في الجهاد ضد البرغواطيين، وهو ما سنتعرض له في فصل خاص.

نماذج من المتصوفين:

ولعله من المناسب أن نأتي باختصار بأربعة نماذج لمتصوفين مختلفين كانوا من رواد الرباط:

- **الشيخ ابو محمد صالح:** كان الشيخ قمة من قمم هذا الوطن، جلالا وعلما وسلوكا وتربية وتصوفا وبذلا، عرف في المشرق والمغرب بنسكه وزهده ومحبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولخلقه، وبعمله الدؤوب لنصرة الحق والحقيقة والدين والشريعة ودفاعه عن المقومات وإحيائها والدعوة لها ونصرتها، ولعل جهوده الرائعة في سبيل تأمين الطريق إلى الحج[57]، واحدة من أعاظيم مزاياه في وقت أفتى فيه غيره بإسقاط الحج عن المغاربة لعدم الأمن في الطريق".

- حلاه الفقيه الكانوني في (البدر اللائح) قائلا: "كان رضي الله عنه من أعيان المشايخ وأكابر العارفين وإمام أئمة السلوك المحققين، وصدر صدور العلماء العاملين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة، والمقامات العلية، والأسرار السامية، والفتح الباهر السني،

---

[56] – رجراجة وتاريخ المغرب / سابق، ص: 82 وما بعدها.

[57] – ذكر الأستاذ أحمد عبد الوارث من مقالة (التيار الصوفي ومقاومة الاستعمار البرتغالي بدكالة في كتاب (دكالة والمقاومة بالمغرب، ص: 24) أن بعض عادات هؤلاء الصوفية من الرجراجيين تبناها أبو محمد صالح كحلق الرؤوس والحرص على أداء فريضة الحج التي ستصبح ركنا أساسيا في طريقته.

والكشف الظاهر الجلي، أحد من أظهره الله للناس رحمة عظمى، وأزاح به الجهالة والعمى، وخرق له العادات، وقلب له الأعيان، وأظهر على يده العجائب، وأجرى على لسانه لطائف الأسرار وبدائع الحكم، وجعله إماما للمتقين، وعلما واضحا للمهتدين فهو أحد أئمة هذا الطريق، السابحين في بحره على التحقيق"[58].

توفي بآسفي ودفن برباطه المعروف.

- **ابو محمد خميس**: ورد في السيف المسلول ما يلي: "هو الولي الصالح، الكنز الرابح، الحد بين الشياظمة وحمير، وهناك يزوره أولاد سيدي الزوين بالأوداية حضرنا معهم، وكانوا يبيتون عند المغفور له الشيخ محمد بن الأمين رحمه الله".

ويعرف الآن بسيدي محمد بن مرزوق، والناس يزورونه بكثرة على جميع الأشغال والقضايا من حرث وحصاد حتى الكيثار والكمان يقصده أصحابها ويكمل الله المقصود والأعمال بالنيات "... وفي العيون المرضية: كان أبو محمد خميس من الأبدال ولقي الخضر عليه السلام[59]، وكان لا يأكل إلا من حرث زرع حرثه وحصاد، والكل من أصل زرعه من زريعة كان أخذها من بعض أتباع التابعين في رحلته للحج، وكان الذي أعطاها له أخذها من يد من أخذها من يد تابعي، والتابعي أخذها من يد بعض الصحابة، وأخذها ذلك الصحابي من يد النبي صلى الله عليه وسلم وكل من دخلت بيده يحافظ عليها ولا يخلطها بغيرها. توفي عام 617 رحمه الله[60].

---

58 – البدر اللائح، والمتجر الرابح في مآثر أبي محمد صالح – للكانوني مخطوط.

59 – السيف / سابق، ص: 205، ترجمة أبي محمد خميس.

60 – نفسه.

- **منية بنت ميمون الدكالية:** أصلها من مكناس ونزلت في الجانب الشرقي من مراكش كما في التشوف كانت من القانتات العابدات الخيرات، أكرمها الله بتقواه فأفنت عمرها في العبادة والتصوف والذكر حتى قيل إن النور كان يخرج من قبرها كبخار القدر حتى يراه كل الناس.

"وحدثني أبو عبد الله محمد بن خالص الأنصاري قال: رأيت منية في رباط شاكر فصليت بها في جماعة من المريدين وانصرفت عنهم، فأخبرني بعض من تحدث معها من المريدين أنها قالت: حضر هذا العام بهذا الرباط ألف امرأة من الأولياء"[61].

"زرتها ووجدتها عجوزا قد اسودت من الاجتهاد، ولصق جلدها بعظمها"[62].

توفيت بمراكش سنة 595 هـ ودفنت خارج باب الدباغين.

- **أبو محمد التيجي (تليجي) بن موسى الدغوغي:** من كبار المشائخ وأجل المتصوفين، وخيرة العلماء كان واعظا برباط شاكر في وقت لا يستطيع صعود منبره إلا الأفذاذ، ومعنى هذا أنه كان من الوجهاء في العلم الدنيوي ومن المعتبرين في العلم الأخروي.

دفعته غيرته على الدين إلى أن يقوم في وجه دولة الموحدين فعد من الثوار وبحث عنه، ولكن الله أقال عثرته فعاش حتى بلغ مائة وعشرين سنة.

"وحدثني محمد بن جلداسن قال: حدثني محمد بن تليجي أن أمه حدثته قالت: رأيت بالليل شخصا دخل إلى أبي محمد فأيقظه من نومه ودفع إليه سطلا فتوضأ منه، قالت: فرأيت حيوانا كأنه ناقة بيضاء

---

[61] - التشوف / سابق، ص 402/316.

[62] - التشوف / سابق، ص 402/316.

قد أتته فركبها فعلت به سقف الدار وسارت به وأنا أبصرها، فلما حدثت بذلك خرست، فلم تتكلم، فأقامت مدة قليلة فماتت[63] – توفي سنة 605".

أتينا بهذه النماذج الأربعة تبركا بها، وللتدليل على أن قاصدي الرباط هم من مختلف نواحي المغرب، ومن مختلف المتصوفين الكبار، وقصدنا بالنموذج النسوي أن المرأة لم تكن كلا ولا عبئا على مجتمعها الإسلامي ومحيطها كما يدعي الذين لم يدرسوا مبادئ الإسلام ولا تاريخه أو الذين في قلوبهم منه شيء.

وأخرى كذلك وهي الآصرة القوية التي كانت تجمع بين هؤلاء المتصوفين وسواء أخذنا التشوف أو المستفاد أو ما كان قبلهما أو ما جاء بعدهما فإننا نجد تلك الخيوط الرفيعة الموصلة للهدى والاطمئنان إلى نفوس المواطنين داخل المد الجغرافي لإمبراطورية كبيرة كما توصل العروق الدم إلى الجسم كله.

ولو وضع الإنسان أمامه خريطة وانطلق من طنجة بالشمال إلى الشرق والغرب والجنوب لوجد مراكز صوفية كبيرة وصغيرة ومتوسطة، بحسب المكان والبناية والعناية مثلا أما بحسب ما تدعو إليه فهي كلها كبيرة ويا حبذا لو أعطي اهتمام كبير لهذه المراكز وأدوارها ليعرف التاريخ الحديث ما أدت من جميل للحركة الصوفية وللدين إجمالا بهذه البلاد.

الموقع الاستراتيجي والتمزق:

صدق من قال: كل ذي نعمة محسود.

وإذا كانت القولة تطبق على الأفراد فهي كذلك بالنسبة للجماعة وكذا الشعوب.

---

[63] – التشوف / سابق، ص 402/316.

وكم ذاق شعبنا من ويلات بسبب هذا الموقع الممتاز الـــذي جعله متحكما في بحرين ومطلا على قارة ومنساحا في أخـــرى ومقـــابلا لثالثة.

وكم تؤومر عليه بسببه حتى فتت ومزق شذر مذر ومازال يعاني.

ومنذ عرفه التاريخ قبل أربعة آلاف سنة وهو يجاهد التـــاريخ ويقاوم ظلم التاريخ محاولا أن يعلو على أمواجـــه العاتيـــات وحلقاتـــه المتواليات، وأيامه الشديدة القتامة.

وسواء في جاهليته أو إسلامه، وســـواء في قوتـــه أو ضـــعفه، وسواء في رخائه أو شدته لم تنخرم القاعدة ولم يترك يدبر شؤونه بنفسه وفق مصالحه العليا إلا في فترات محدودة.

ولعل محنة الخوارج من صفرية وأباضيين وتعـــدد الإمـــارات والتآمر من هنا وهناك جعلته يعيش قرونا بين المد والجزر، بين فتن كقطع الليل ومصالح متضاربة بين قوات مختلفة كل منها تحاول أن تضمه إليها بما تضع أمامه من عراقيل وبما تستميل إليها من رجال وعروش، ولـــو أدى ذلك إلى ثورات وادعاء نبوءات واختلاف دين جديد، له طقوسه وكتبه وعلماؤه وقبائله وتحالفاته وجيوشه وأنظمته وحروبه، في ســـبيل الغلبة والقهر وفي سبيل استعباد ما يعرف الآن بالمجتمع المـــدني، الـــذي كثيرا ما كانت علاقاته منفصلة مع زعماء مثل هذه التيـــارات، إلا إذا وطدت عن طريق القهر والمغامرة والعنجهية، وهذه كلها ليست وسائل للتصافي والاستقرار.

ولو تتبعنا كل حركات التاريخ لوجدناها تسير في هذا الاتجاه مدفوعة ومندفعة بما هو أقوى لتحقق مطامحها ولتـــضبط حكمـــة الله: "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"[64].

---

[64] - سورة البقرة من الآية الكريمة 249.

ولو تتبعنا نظريات العباقرة من البشر أو حتى متوسطيهم أو حتى عاديهم الذين لا يملكون إلا تجربتهم البسيطة وحياقم اليومية وتوازناقم مع جيرانهم لما كنا بعيدين أبدا عن النظرة الخلدونية التي تقول "إن علة العلل لمسار التاريخ البشري هي أن السلطة السياسية (الغلبة) دائما مفصولة عن المجتمع المدني وأن العلاقة بينهما وهي دائما علاقة مواجهة ومضادة تتلخص وتتجسد في علاقة البدو بالحضر... ما يبعث الحركة في المجتمع هو النزوع إلى الغلبة والقهر، هو التطلع إلى الانفراد بالسلطة، هو إذن قوة دافعة. وهذه لا توجد عند البشر إلا في العصبية القبلية، القبيلة ملتحمة حول شيوخها بإرادة التفوق والقهر، وكل التحام في الطبيعة كان ماديا أو غير مادي يخلق قوة، فالقبيلة تكسب بمجرد عصبيتها قوة دفع وتحريك، ومن هنا يأتي الدور المناط بالبدو في التاريخ".

وكذلك كانت برغواطة:

ولم تخرج برغواطة عن هذا التصنيف رغم أن البعض ينفيه كما لم تخرج عنها الدويلات والإمارات التي أسلفنا الإشارة إليها حيث كانت دولا لطوائف مغربية قبل أن توجد في الأندلس تلك التي قال فيها أحدهم:

مما يزهدني في أرض أندلس — أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وإذا كان لكل إمارة ودولة طابعها ونظامها وسلطتها ومواردها الاقتصادية والإنسانية وأسواقها وتحكمها في الطرق المختلفة الهامة، فإن برغواطة كانت أكثرها حظا وأقواها سلطة وأغناها ثروة وأشدها عصبية وبالتالي أبقاها على التاريخ لقرون.

لقد عاش البرغواطيون في منطقة مهمة جدا، اقتصاديا وعمرانيا وموقعا ومناخا و "كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة، وكانوا شعوبا كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصا من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وآسفي"[65].

وأهل تامسنا يدعون اليوم بالشاوية وموطنهم من سلا إلى أزمور"[66]، و "تامسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفي"[67]، وبالمثل تناولت بعض المصادر الجغرافية المتأخرة – الحسن الوزان – تامسنا باعتبارها مجرد إقليم تابع لفاس ينضبط بين مجريي نهر أبي رقراق وأم الربيع طوال ثمانين ميلا، وبين جبال الأطلس وساحل البحر المحيط عرض ستين ميلا، بينما يمتد الإقليم حسب بعض الحوليات المغربية المتأخرة نحو الجنوب إلى حيز مدينة آسفي"[68].

إذن فهم كانوا يتحركون في بقعة واسعة جدا متمتعة بالنماء والخصب والثروة التي من دعائمها المحيط الهدار والأرض المعطاء، وأم الربيع الذي لا يستريح... وحتى تانسيفت الذي يشتد عطشه في بعض الأحيان، ما داموا قد وصلوا إلى آسفي ونفيس... ومن هذا كانت مقاومة الرجراجيين لهم شديدة كما سيأتي.

مؤسسون... وديانة:

تقول الروايات: إن أول مؤسس لبرغواطة هو طريف أبو صبيح، ولكن من هو طريف هذا؟ عند صاحب كتاب الخوارج بالمغرب

---

[65] – مجمل تاريخ المغرب / سابقا، ص 228.

[66] – ابن خلدون / سابق.

[67] – ابن خلدون / سابق.

[68] – الحلل السندسية، في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، تحقيق سليمة بن عمر لسبيا 2002.

أنه اتصل بعكرمة البربري مولى ابن عباس الفقيه المشهور رضي الله عنه، وتلقى أصول المذهب الصفري على يديه بالقيروان يؤيده قول البكـــري أن: "طريفا.. كان من أصحاب ميسرة المطغري".

"وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صبيح، وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المطغري، القائم بدعوة الـــصفرية ومعها معزوز بن طالوت، ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية، وبقي طريف قائما بأمرهم بتامسنا"[69].

"وقد تم انتشار المذهب الخارجي الصفري في أوساطهم على يد كبيرهم وشيخهم طريف من ولد شمعون بن يعقوب بـــن إســـحاق"[70]. الذي تنبأ وشرع لقومه وأنه المهدي وأن عيسى يكون من أصحابه.

وجاء بعده ابنه صالح وكان عالما درس القرآن والحديث وساح في الأرض، وتعلم كثيرا من اللغات"، وكان من أهل العلم والخير فيهم، ثم انسلخ من آيات الله، وانتحل لهم دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده"[71].

وقد ظهر صالح كما قالوا سنة **127** أو قبلها حـــوالي **105** أو **116**، بل من قال إن ظهوره كان قبل ذلك بكثير.

وجاء بعده يونس، وفعل الأفاعيل، أهلك الزرع والـــضرع، وأرغم الناس على اتباع دينه وأحرق المئات من المدن.

وجاء بعده آخرون أقل منه أو أكثر ولكنـــهم يـــشتركون في النحلة التي أثارت الفتن وشغلت الناس ولم يتخلص منـــها المغـــرب إلا

---

[69] – الاستقصا، ج 1، ص: **114**.

[70] – المغرب الأقصى، سابق / **152**.

[71] – ج: **6**، **276**، سابق.

بدولة المرابطين، بل بقي منهم من بقي – وإن في أسماء أخرى ودعايات أخرى – إلى أيام المولى الحسن الأول حيث قضى عليهم وهم ينشدون:

وكنت امرءا من جند إبليس فانتهى بي الأمر حتى صار إبليس من جندي

الديانة البرغواطية:

وهذه فقرات مما جاء في القرطاس حول ديانتهم:

"قال: "كان الضلال الذي شرع لهم أنهم يقرون بنبوته، وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار، وأن الأضحية واجبة على كل شخص في الحادي والعشرين من المحرم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين، وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة إلا من حرام، وصلاتهم إيماء لا سجود فيها، لكنهم يسجدون في آخر ركعة خمس سجدات ويقولون عند تناول الطعام: باسمك يا كساي وزعم أن تفسيره باسم الله".

"... ووضع لهم قرآنا يقرأونه في صلواتهم ويتلونه في مساجدهم، وزعم أنه نزل عليه وأنه وحي من الله تعالى إليه، ومن يشك فيه فهو كافر، والقرآن الذي شرع لهم ثمانين سورة سماها لهم بأسماء النبيئين وغيرهم منها: سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون، وسورة موسى، وسورة هارون، وسورة بني إسرائيل وسورة الأسباط، وسورة أيوب، وسورة يونس، وسورة الجمل، وسورة الديك وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة هاروت، وماروت، وسورة إبليس، وسورة الحشر، وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وفصل، وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال: أنا صالح

المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم كما حكاه البكري عن زمور بن صالح"[72].

النظرة الحديثة للخوارج:

لا نريد الإطالة في أمر برغواطة لأن مقصودنا التعريف برباط شاكر ولكن قبل كل شيء نشير إلى أن العديد من الدراسات الحالية تكاد تتناقض مع ما كتبه المؤرخون عنهم وما بينوه هم أنفسهم في مذهبهم وساروا وفقه وطبقوه.

لقد جاء في إحداها: "زد على هذا أن كفار برغواطة مجرد خرافة نسجتها أقلام المؤرخين السنيين وكتاب البلاطات ضد خوارج المغرب الذين كان البرغواطيون منهم"[73].

وجاء في أخرى: "نخلص إلى أن المذهب البرغواطي المغربي النشأة، الأمازيغي اللسان يستمد أصوله الفكرية وقواعده النظرية من مشارب شتى، تجمع بين فكر الخوارج الصفَرية، ومعتقدات الشيعة من الروافض الأمامية، وتعاليم القدرية والمعتزلية الواصلية ومسلك الزهاد الصوفية، واعتمادا على هذه الأصول المتنوعة إلى حد التناقض أمكن لصالح بن طريف وللأئمة البرغواطيين بعده من صياغة مذهب إسلامي متميز عن كافة ما هو معروف من المذاهب الإسلامية، ولعل في مخالفتها للمذاهب الفكرية والكلامية المشرقية المنشأ وخصوصا لاعتمادها اللسان الأمازيغي ما يفسر إقصاءها من طرف كافة مؤرخي الفرق الإسلامية فضربوا صفحا عن ذكرها مقتصرين على كيل التهم لها بالكفر والزندقة والخروج عن الملة"[74].

---

[72] – المغرب الأقصا، في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب / 135.

[73] –احمد بوشارب ص 125– سابق.

[74] – المغرب الأقصا – سابق.

أما أنهم ضربوا صفحا عن ذكرها فصحيح...

وأما أنهم كالوا التهم لها بالكفر ففيه نظر، أو ليست ديانة صالح كفرا صراحا؟

إلى هذا الحد يوصف ما مر في أربعة قرون من الطعان والنزال والجهاد بأنه خرافة؟

إلى هذا الحد يتآمر المؤرخون السنيون على التاريخ وعلى الله وعلى الناس؟ إلى هذا الحد يدافع عن برغواطة لأنهم فقط من خوارج المغرب؟

ألا يعد ما جاء في المذهب أو الديانة البرغواطية كفرا وخروجا عن الدين؟

وهناك قاعدة فقهية وقانونية تقول: الاعتراف سيد الأدلة وقد اعترف الكثيرون من أئمتهم بما فعلوا.

وهل ابن حوقل كان مؤرخا سنيا وكاتبا في البلاط حينما كتب: "وفيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور ويتلو آياتهم على موافقتهم لكتابهم وقرآنه"[75].

إن الذي يعرف برغواطة وقرأ عنها ما جاء عند مؤرخينا كابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما، وقرأ ما يكتب اليوم يدرك أن النية متجهة إما:

- إلى تبرئة البرغواطيين مما فعلوا وهذا ليس سهلا.

- وإما إلى التشكيك فيما كتبه المؤرخون طوال قرون عديدة كما فعل أدباء وشعراء ومهووسون بالطعن فيما هو أصيل ونابع من جوهر الحقيقة والصدق، وهذا بدوره لن يتحقق، فكثر هم هؤلاء الذين حاولوا منذ يفاعة الإسلام إلى الآن ولكن يقال فيهم:

---

[75] - أحمد بوشرب، 125.

واعتقادنا – أولا وأخيرا – أن محاولة خنق التاريخ والحكم عليه بأدوات القرن العشرين ومناولات الفاكس والإنترنيت، وجاهزية الفكر الغربي وتحميله ما لا يحتمل... فيه تجن كبير على الحياة الإنسانية كلها دعك من شعب أو من مجموعة معينة، فالمنهجية والتحقيق (العلمي) والعصرنة والحرية ما كانت أبدا هي الضرب بكل ما هو معروف لصياغته من جديد وفق أفكار أخرى، وتحليلات الطابع الغربي فيها ظاهر ومسيطر.

كتب الأستاذ الكبير المعروف شكيب أرسلان، وهو كاتب مؤرخ وعالم وسياسي ولكنه من أبناء القرن العشرين في مقدمة كتابه: "(النقد التحليلي) ما يلي: نعود إلى الخصال التي أولع بها الأوربيون وليسوا فيها على حق، بل أصبحت عندهم أشبه بمرض أو هوس منها بعادة أو خصلة وذلك أنهم يبالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حالة أسبابا غريبة وعللا لا تخطر على البال فيأتون من هذا النوع بالغث الذي يكاد يقيء القارئ العليم من شدة نبوه وغرابته، ولا يزالون يغربون في إيراد الأسباب، ويتنوعون في التخرصات والتكهنات ما شاءت خيالاتهم، وما طالت تصوراتهم حتى يظن الإنسان أحيانا أنه يقرأ أضغاث أحلام وحتى تبقى الألفاظ بدون معان، وكثيرا ما يرمي القارئ بالكتاب جانبا ويزهد في القراءة ويعدل عن النظر في ذلك الكتاب الذي قد توجد فيه فوائد في جانب هاتيك السخافات"[76].

---

[76] الفقيه الكانوني حياته فكره و مؤلفاته. محمد السعيدي الرجراجي ص 71.

إن فساد وإفساد عقيدة وإلهاء شعب ووضع المطبثات، في طريقه يبقى من المحرمات والمحظورات والممنوعات والموبقات مهما تعددت التعليلات واختلفت المسوغات.

مقاومة المد البرغواطي:

في تاريخ المقاومة ضد البرغواطيين، تبرز خاصيتان اثنتان، وهما اللتان ظلتا موجهتين هذا الشعب منذ ذاك إلى المسيرة الخضراء.

أولاهما: التشبت بالعقيدة الدينية والدفاع عنها لأنها أس الكيان.

ثانيتهما: التضامن الشعبي الذي أدى دوما إلى النصر وإن عزت التضحيات.

ولقد مرت هذه المقاومة في ثلاث مراحل كبرى:

المرحلة الأولى:

وتمثلت في التحالف القبلي الذي ضم قبائل كثيرة كونت هي ورجراجة حلفا صمد للبرغواطيين وللقبائل التي دانت لهم بالطاعة أو ناصرتهم وهي كثيرة بدورها صلبة في دفاعها، قوية في حربها، متوفرة أقواتها، غنية أرضها.

كانت مدن مرامر ونفيس وأكوز هي المنطلقات الكبيرة التي يصدر عنها المجاهدون وإليها يردون كما كانت رباطات شاكر وأكوز وأيعطير ثغورهم ومكان تجدهم، وقد لعبت كل من هذه الرباطات الثلاثة أدوارا هامة جدا، فرباط شاكر كان هو المقر الرئيسي الذي تخرج منه الجنود، وتتعبأ فيه وتتسلح وتعطاها الإشارة وتقاد، وأكوز كان مكانا للحواريين كما أن مكانته كانت سامحة له بتزويد المقاومين بما يحتاجونه، وايعطير، "ويحتمل أن يكون بين ركراكة وموطن برغواطة على خط رباط شاكر وغير بعيد عن البحيرة الملحة (زيما) حيث أنقاض رباطات"

كما في الهامش 93 من ص 113 بالتشوف وفعلا فهو كـذلك، وبـه ضريح أبو محمد خميس، وبقربه سوق جمعة العروصي الحالية، ومرامـر وزيما وشاكر الذي يعد أبو محمد خميس واحدا من أحفاده كما سـلف فايعطير كان يمثل من ناحية، المكان الذي يستريح فيه المجاهدون قبـل أن يصلوا إلى شاكر، ومن ناحية أخرى حارسا قويا للإسلام بتلك النواحي.

ولقد أدركت القبيلة الرجراجية أن المقاومة لابد لها من تخطيط ومال وسلاح ورجال كفوا مشاكل من تركوا وراءهم، فعملت على أن تجمع بين الصلاح والثروة (فصلحاؤها موزعون علـى ثلاثـة أنـواع: العلماء من بني يزل السمحاء في حويرة ووجوه الناس في ارتن أما الثروة ففي يد بني يصلن كحراث، وويرة كحدادين، أما الحـساب (محاسـبي الضرائب) فهم من فرقة الركادة والجيش من فرقة هفيفـة، والـسلطة محصورة في بني سغمرت[77].

وهذا تنظيم جيد ومنظم، وتهييء لحرب ليـست سـاعة ولا حتى سنة.

وقد ذكرت الكتب المتحدثة عن رجال رجراجة السبعة كمـا أشير لذلك أن كل واحد منهم كان مكلفا بمهمة، فالشيخ عيـسى بـو خابية كان يصبغ ثياب المجاهدين ولذلك سمي (بوخابية) وأخوه سعيد بن يبقى كان يمثل دور القاضي وواسمين كان الرئيس وأبو بكر أشماس كان صاحب رأي ومشورة، ويعلى بن واصل كان يضرب الطبـل إيـذانا بالحرب، وقد قال غير واحد أن الطبل بقي معلقا بالربـاط إلى أواخـر القرن السادس الوقت الذي بدأ فيه دور الرباط في الانحسار، أما عبـد الله أدناس وصالح بن أبي بكر، فيظهر أنهما كانا أصغر مـن الـسابقين فكلفا بما يكلف به الشباب.

---

[77]سورة الأرض ص83 هنه.

والتنظيم الذي ذكرناه وإن كان متأخرا جـدا إلى مـا قبـل الموحدين فلا شك أن بذوره نبتت قبل ذلك بكثير لتعطي ثمارها في هذا الوقت.

ويجب التنبه إلى أن بعض من تحدث عن المرحلة لا يذكر اسم القبائل بأسمائها وإنما يكتفي بكلمة "البربر" الشيء الذي أدخـل بعـض التردد والارتباك على دور رجراجة حتى وجدنا من يقول: "أصـبحت رجراجة تعرف بـ رجراجة "الأحرار" وتشير مرة أخـرى "إلى أننـا لم نقف على ما يثبت أن هذه القبيلة لعبت دورا أهم مما لعبتـه غيرهـا في مقاومة البرتغاليين[78].

وقد تكون بعض الصحة لأنه يتحدث عن المرحلة البرتغاليـة، وحتى هنا نظن أن الأمر ليست فيه أية صحة فهو نفسه يكتـب في ص 469: "فإن رجراجة كانت المستفيد من اندحار البرتغاليين إذ أرجعـت العامة ذلك إلى جهادها، ولهذا أصبحت تعتبر (قبيلة ولية) وكثر الأولياء المنتمون إليها الذين شيدت لهم أضرحة بدكالة".

والنص مفيد جدا فهو يحيل على أن القبيلـة كانـت قائمـة بالواجب في الدفاع عن الإسلام، منذ الفتح الإسلامي الأول إلى أيـام البرتغاليين في القرن الثامن الهجري وما بعده، كما أنه يعترف بما قامـت به في دكالة وإلا فلأي سبب سـتبنى لأوليائهـا أضـرحة؟، ولـيس الرجراجيون هم الذين بنوها على كل حال بل أولئك الذين اقتنعوا بمـا فعلوا.

ومع هذا فالصوفيون الرجراجيون وجهادهم تحدث عنهم أكثر من واحد، ونكتفي بهذا النص المختصر للفقيه الأستاذ المختار الـسوسي وهو ليس ممن يحتطب في حبلهم: "ونحن نعرف ما مضى لهم من مجـد في

---

[78] -أحمد بوشارب,سابق هامش 79 رجراجة و تاريخ المغرب سابق,

جهاد برغواطة أيام ازدهار مدينة (نفيس) و (رباط شاكر) فقد مثلوا أعظم دور حتى أيدهم الله باللمتونيين فوحدوا الكلمة وأفرغوا المغرب كله مع غيره في قالب واحد فكانت وحدة اندمج فيها الرجراجيون وغيرهم"[79].

المرحلة الثانية: مقاومة بقيادة إدريسية

وقادت المقاومة في هذه المرحلة الدولة الإدريسية. والدولة الإدريسية جاءت والمغرب في حاجة إليها، وسواء كان المولى إدريس الأول معتزليا شيعيا أو وافق إسحاق الأوربي على مذهبه الاعتزالي.

وسواء وصل سنة 158هـ /775م أو سنة 172هـ / 788م في أعقاب مبعوثين إلى طنجة ووليلي فوجد الأمور ممهدة أم لا.. فإنه كون دولة أخرجت المغرب من تقوقعه ودوخته وفوضويته، ليتجه محققا ذاتيته ومدافعا عن عقيدته وحقه في الإمامة التي كان أحق بها وأهلها في المشرق قبل المغرب.

والمولى إدريس، وإن لم يبسط نفوذ الدولة على مجموع التراب المغربي، فقد نجح في خلق جهاز دولة قوية بنت وشيدت وفتحت، وأنشأت معاهد ومصانع، وفتحت أبوابا واسعة لتعريب اللسان البربري، وغيرت الاتجاه التضليلي الذي كان سائدا عند الكثيرين. وقد انضمت قبائل كثيرة إلى الدولة الجديدة، ورغم أن نفيس كانت مدينة مسلمة وبها الرباط الشاكري الرجراجي، فقد غزاها.

ونعتقد أن غزوها كان بغاية تحرير المسلمين الذين بداخلها والذين أخضعهم البرغواطيون إلى سلطتهم، وهذا يفيد أن الرجراجيين من سكان نفيس الذين يوصفون دائما بالمصامدة لم تكن لهم ساعتها

---

[79] – رجراجة رائدة الرباطات بالمغرب، ص: 209 الحسين اسكان / تاريخ إقليم آسفي – دفاتر دكالة وعبدة، رقم: 1.

القوة الكافية لدرء البرغواطيين الذين أرغموهم على اعتناق نحلتهم كما يفعل دائما القوي المستبد.

وفي غزو إدريس الثاني المغربين، يقول صاحب الاستقصا: "..فخرج غازيا بلاد المصامدة فانتهى إليها واستولى عليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات وفتح سائر بلاد المصامدة"[80].

وإذا كنا نعرف أن بلاد المصامدة طويلة عريضة ولا تستطيع الدولة الإدريسية بما لها من قوة وجيش أن تفتح حتى ربعها نظرا لقوة خصومها الكثيرين، فإن مصامدة رجراجة كانوا على الأقل خارجين عن سرب البرغواطيين والكفار الآخرين بل كفوا الدولة ناحيتهم.

وفي النص السابق للناصري نجد ثلاثة أفعال: استولى ودخل وفتح، واستولى وفتح يفيدان أن القوة كانت حاضرة، أما دخل فنرى أقرب تفسير له كان لتفقد الأحوال وإراحة الجيش والتزود من جديد بما يحتاجه، ثم زيادة الرباط الذي كان ساعتها ذا صيت ذائع.

المهم أن الرجراجيين والأدارسة كانوا في خندق واحد حتى إن ما أصاب الشرفاء الأدارسة من قتل وتدمير وتعذيب على يد المغراويين أصابهم بدورهم، وكان المولى عبد الله بن إدريس ملك أغمات وبلاد مصمودة ولمطة والأطلس الصغير كما في معلمة التصوف للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ج 1 ص: 9.

"وفي هذه الفترة تقوى المد الشيعي والأموي الوافدان من تونس والأندلس، وكان هناك صراع مرير يهمنا منه الديني، حيث كان الرجراجيون في صفوف الأدارسة في حروبهم ضد البرغواطيين وفي فتحهم لنواحي أخرى من المغرب، فهل يرجع الأمر لكون الأدارسة بضعة نبوية؟ أم لأنهم الأمراء والحكام وطاعتهم واجبة؟ أم أن الأمر

---

[80] – الاستقصا ج: 2، ص: 153.

يتعلق بالجهاد والتحرير ومحاربة الكافر والاستشهاد في سبيل الله؟ كل ما ذكرنا صحيح خاصة وأن المغرب إذ ذاك خرج من شرنقة "سلطة الدولة" وتتشخص في دولة الخلافة، و"سلطة الإمارة" وتنتشر في الأطراف أو الجهات التابعة، و"سلطة القبيلة" وتضبط في البناء الاجتماعي ليبدأ في بناء نفسه تحت سلطة واحدة تحاول أن توحد".

إضافة إلى هذا، فالأدارسة كانوا دولة سنية، "والخليفة في النظام السني الإسلامي ليس ممثلا للسلطة الإلهية، وإنما هو ممثل للأمة التي اختارته وبايعته، يستمد منها سلطته في المسائل التنفيذية والقضائية دون الناحية التشريعية"[81].

ولذلك قال ابن خلدون: "والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها... فهي في الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[82].

ومن هذا المنطلق تلاحم الأدارسة والقبائل المغربية المسلمة.

والمرحلة الثالثة وكانت مع المرابطين:

وبين الحقبة التي نتحدث عنها وقيام المرابطين زمن طويل امتد إلى قرابة قرن ونصف، وقعت فيه حوادث وأحداث، داخلية وخارجية، دينية ودنيوية، سياسية واقتصادية، سقطت فيها دولة الأدارسة الأولى وتكونت الثانية، فأصابها ما أصابها ووقع المغرب بين كماشتي تونس والأندلس، وقامت تحالفات وانحلت أخرى، وانتصرت جيوش وانهزمت أخرى... ولكن البرغواطيين بقوا محافظين على سلطتهم التي بها حافظوا على تدجيلهم وضلالهم وإذايتهم الناس.

---

[81] – من محاضرة للمؤلف بعنوان: التصوف الرجراجي السني.

[82] – من محاضرة للمؤلف بعنوان: التصوف الرجراجي السني.

وكما قلنا سابقا، فإن المد الشعبي ضد التيار البرغواطي كان كاسحا رغم الفتن والاضطرابات وإقامة إمارات وإسقاط أخرى.

وزيادة على ما سبق، ففي الاستقصا: "ولما زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب زحفه المشهور، وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا إلى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان، وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم إلى جهاد برغواطة، فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث بسبيهم إلى القيروان[83]، وفيه: "وكان أبو الكمال اليفرني يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلبا في دينه مستقيما فيه مولعا بجهاد برغواطة، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي"[84]، "وقد كان للملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة وغيرهم"[85].

ومن هم غيرهم، ولماذا لم يذكروا باسم ولا لقب الأنهم لم يكونوا دولة؟ ولم تكن لهم سلطة زمانية قاهرة غير سلطتهم الدينية التي بها عرفوا؟

"ثم حاربتهم أيضا جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد ابنه عبد المالك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة، فعظم أثره فيهم بالقتل والسبي"[86].

ثم حاربهم أيضا بنو يفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيري بن عطية المغراوي

---

[83] – الاستقصا، ج 2، ص: 16.
[84] – الاستقصا، ج 2، ص: 16.
[85] – الاستقصا، ج 2، ص: 16.
[86] – نفسه.

صاحب فاس[87].

والعجيب أن المغرب في هذه الظروف كان منجما لكثير مـــن المنحرفين الدجالين، ففي سنة 313 هـــ ظهر بجبال غمارة حاميم ابن من الله المتنبي، ووجد من يؤمن به ويتبع شريعته ويمارسها، ووجد من يقـــرأ قرآنه: "خلني من الذنوب يا من خل النظر ينظر في الدنيا، أخرجني من الذنوب يا من أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر"[88].

وبظهور دولة لمتونة وانتصارها بطل السحر وقتل الساحر.

وكانت للمرابطين بدورهم يد جميلة في محاربـــة البرغـــواطيين حيث حاربوهم بمن انضاف إليهم من القبائل حربا عوانا كانت نهايتـــها القضاء عليهم وإخلاء جيوبهم وتشتيتهم تشتيتا نموذجيا.

ولمتونة وفدوا من الجنوب، وفي الجنـــوب كانـــت رباطـــات وشخصيات سواء رجراجية أو من عناصر أخرى... كـــان لهـــا دور في بلورة الدعوة الإسلامية وخاصة على يد الشيخين وجاج بن زلو اللمطي وأبي عمران الفاسي، اللذين كانا السبب في ظهور شخصية الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي، الذي تولى رسالة النهوض من جديـــد، والعمـــل على إحياء ما اندثر من أمور الدين والأخلاق المتفسخة والحياة المضطربة بعامة.

كان عبد الله بن ياسين قائد جيش ممتاز، وإماما صالحا مشهودا له بصلاحه، وصاحب رأي متزن مصواب، وذا ورع محمـــود، وقيـــام بالليل طويل... فكانت قيادته بردا وسلاما بها تقرى كل النواحي وبسط نفوذه المبني على التقوى وجاس كل القبائل والمدن التي أمكنته ظروفـــه من الوصول إليها.

---

[87] – نفسه.

[88] – المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية – سابق.

"ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن وبلاد رودة ومدينة شفشاوة بالسيف ثم فتح مدينة نفيس وسائر بـــلاد كدميوة، ووفدت إليه قبائل رجراجة وحاحة وبايعوه"[89].

والذي يهمنا هو وفود رجراجة وحاحة عليه ومبايعتهم إياه.

فهل جاءوا مجتمعين مما يدل على أنهم كانوا في حلف بينهم، أم جاءوا مفترقين؟

وأين وفدوا عليه؟ طبعا في مدينة نفيس التي ربما تغلب عليهـــا البرغواطيون من جديد، لكن هذا الفتح لم يكن بالسيف شأن شفـــشاوة (شيشاوة) فهل كان صلحا؟ ونعتقد أنه لم يكن لا صلحا ولا سيفا وإنما كان دخولا عاديا لأن نفيس مسلمة، والتعبير اقتضى فعل فتح ليس إلا، وشفشاوة أليست تجاور نفيس وكانت قطعا مسلمة فلمـــاذا فتحـــت بالسيف؟ ونعتقد هنا أن القضية ليست قضية إدخال في ديـــن، لأنهـــم مسلمون وإنما إدخال في سلطة جديدة تحاول أن توسع نفوذها، وتقوي شوكتها...

ويبقى أن الذين وفدوا دون أن يجلب عليهم بخيل ولا رجـــل، وفدوا ليجاهدوا معه برغواطة وليقضوا علـــى نفـــوذهم وكبريـــائهم وخروجهم عن جادة الصواب والحق والدين.

ولقد طالت الحرب بين الفريقين واستطالت حتى استشهد فيها الأستاذ الزعيم ابن ياسين سنة 451 هـــ بعدما كانت بينهما: "ملاحـــم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير".

وكانت علاقة الرجراجيين جيدة مع المرابطين إلا أنها أصـــيبت بنكسة تعرضنا لها ببعض التفصيل في كتابنا (رجراجة وتاريخ المغرب).

---

[89] – الاستقصا، ج 1 2، ص: 13.

الفصل الرابع

الرباط والتيار الصوفي في العهد المرابطي والموحدي

استهلال:

يقول الإمام الشعراني في طبقاته: "التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالكتاب والسنة، فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها"[91/90].

ويقول الإمام الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"[93/92].

[91/90] - ملامح التواصل الصوفي بين فاس وكندر والنواحي، ص: 4/1 أحمد الغزالي اليحياوي، ط: أبي عبد الله عن الرسالة القشيرية، ص 4/3 عن الجويني إمام الحرمين / ذو فوقية حسين محمود ص: 52، سلسلة أعلام العرب 40.

[93/92] - عن الرسالة القشيرية ص، 4/3 عن الجويني إمام الحرمين، ذ. فوقية حسين محمود ص: 52 سلسلة أعلام العرب 40.

ويرى أبو القاسم القشيري أن التصوف: "ملازمـة الكتـاب والسنة مع مجاهدة النفس لأهوائها، ومداومة النضال مع نزواتها، والبعد عن البدع والشهوات والرخيص من الأعمال"[94].

ويقول الفقيه محمد المختار السوسي: "فحينئذ ليس لب التصوف في جوهره لبس المرقعات، والتقلد بالسبحات، ولا الحلق المستديرات ولا الإغراق والغلو في صحبة الشيوخ ولا إرسال العذبات، ولا الانحياش إلى طائفة دون طائفة، بل التصوف هو الاستقامة على السنة الصحيحة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصدر الأول من السلف الصالح رضي الله عنهم"، فكيف يفلح من يعمل عن قصد عملا لم يعمله الرسول صلى الله عليه وسلم، محتجا بأن فلانا يفعل ذلك، قالها الله، لا خير إلا في السنة، ولا فلاح إلا لمن يحرص على أن لا يخرج عما صح عن خير المرسلين الذي أمرنا الله عز وجل بالاقتداء به وحده (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) صدق الله العظيم[95].

ويقول أبو مدين الغوث في خمرته الصوفية:

فلا تلم السكران في حال سكره ... فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

وصن سرنا في سكرنا عن حسودنا ... وإن أنكرت عيناك شيئا فسامحنا

فإنا إذا طبنا وطابت عقولنا ... وخامرنا خمر الغرام تهتكنا[96]

أتيت بهذه النصوص لأصل إلى أن التصوف هو فناء في الله، ومحبة في خلق الله انطلاقا من قول الرسول الكريم: "نظر الرجل إلى أخيه

---

94 - عن الرسالة القشيرية ص، 4/3 عن الجويني إمام الحرمين، ذ. فوقية حسين محمود ص: 52 سلسلة أعلام العرب 40.

95 - الترياق المداوي / المختار السوسي / المطبعة المهدية.

على شوق خير من اعتكافه سنة في مسجدي هذا" رواه الحكيم والترمذي عن ابن عمر[96].

وهو انفساح للنفس في الوجود، لتستقر في رحمات يترجاها العابد من المعبود وهو حرية أزلية، وفسحة عمرية، سداها البحث عن الراحة الأبدية بتوفيق من الله وباتباع سنة رسول الله.

وهو عناق وانعتاق، وشوق واشتياق، وزهد فيما عند الغير، ودعوة للفضائل والخير، أما الطريقة الموصلة لذلك، فهي معروفة وتختلف باختلاف الهمم والاستعداد.

ومنذ بعث الرسول الكريم كان التصوف ونما، وازدهر في القرن الأول والثاني الهجريين، وكان له أعمدته وقادته، ليتوالى بعد ذلك خلال كل العصور ليتشكل بلون العصر الذي وجد فيه، وينصبغ بصبغة دواعيه وأسبابه.

الصوفيون الأولون بالمغرب:

أ- أما في بلادنا فنشأ بها التصوف مبكرا.

وتاريخيا، كان ذلك ببلاد رجراجة في القرن الأول الهجري، وقد أشرنا إلى الرجال السبعة الذين كانوا أول المتصوفين... ثم توالى ذلك فيهم سواء عن طريق مواسمهم أو رباطاتهم أو زواياهم.

والمنطقة التي انبثق فيها ومنها، كانت كلها بربرية ولم تكن أية لغة تزاحمها ساعتها وكانت ذات مميزات إنسانية وعلمية وفلاحية، دعك من الصوفية، وقد قالوا "إن الولاية تنبت بدكالة كما تنبت الأعشاب" و"من أراد الدنيا والآخرة فعليه ببلاد رجراجة".

ونظرا لبربريتهم وعدم معرفتهم – كما يجب – باللغة العربية، فقد امتاز تصوفهم بـ:

---

[96] - المتعة والراحة، في تراجم أعلام حاحة، ص 224، ج1.

- السهولة والتلقائية أو قل حتى السذاجة.

- البعد عن التعقيد انطلاقا من بيئتهم وثقافتهم، ولا نجد أسماء كثيرة للمتصوفين الأولين غير الرجال السبعة وشاكر وقلة قليلة، نظرا لعوامل سبق الحديث عن بعضها.

ب- ونظرا لكون دولة الأدارسة دولة عربية شريفة – وإن قامت على أكتاف البرابرة – فقد اتسم التصوف فيها بنفحة عربية مأخوذة من ثقافة عربية سداها القرآن الكريم ولحمتها الحديث والشعر والنثر، والمواعظ وما أنتجه قرنان اثنان من خصومات ومعارك وإنتاجات أدبية وعلمية، وما أحدثته الحركات المتوالية داخل الدولة العربية من الأندلس إلى حدود الصين، وما صبغت به العقلية العربية التي تخطت حواجز الخيمة والرماد ورحلة الشتاء والصيف إلى فضاءات أوسع وأرحب، وأغنى وأقنى.

وكان لمتصوفي عهد الأدارسة تأثر بالغ بمتصوفي المشرق وإن في مراحله الأولى رغم أن هناك من ينفي هذه النظرية مع العلم أن الحقيقة تؤكدها، فالوافدون على إدريس الثاني سواء من تونس أو من الأندلس أو من غيرهما كانوا عربا، وكان فيهم من له نزعة صوفية قلت أو جلت، واختلطوا بغيرهم من العرب والبربر، فكان لابد أن يحدث انصهار وتلاقح وأخذ وإعطاء وتعاون وتأثير "وورد على الأمير الفتي خمسمائة فارس عربي من إفريقية والأندلس فجعل منهم حرسه الرسمي واستوزر عمير بن مصعب الأزدي كما استقضى عامر القيسي تلميذ الإمام مالك، فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى، لتعريب المغرب بعد توطيد إسلامه"[97].

---

[97] – ملامح التواصل الصوفي، سابق، انظر محاضرتنا: (الحركة الصوفية ودورها في مقاومة الاحتلال).

كل هذا ولا يكون تأثر وتأثير، والحركة الدينية والثقافية والتصوفية في المحيط الأمامي كلها أو أغلبها تتحدث لغة عربية، وتقرأ قرآنا مبينا، وتتعامل مع مقتضياته ومبادئه، وتعمل على تعريب اللسان البربري حتى تزول تلك الفرقة أو النفرة التي كثيرا ما اشتكى منها.

المرابطون قوة جديدة على المسرح:

"أما الإسلام فقد غير كثيرا من أنظمة البربر وأوضاعهم، فقد تحولت العنصرية القبلية الضيقة المحدودة، التي عرفها الزناتيون والصنهاجيون وغيرهم قبل انتشار الإسلام، إلى عصبية دينية تكون القبيلة أو الأسرة الحاكمة قطب دائرتها، لذلك نجد المرابطين عند تأسيس دولتهم قد أشركوا في جيشهم ووظائفهم عناصر ليست بعيدة عن صنهاجة فقط، بل حتى عن البربر جملة كبعض سكان الأندلس، ومد المرابطون يدهم في امتثال وطاعة إلى الخليفة العباسي، يستمدون منه مشروعية دعوتهم ودولتهم"[98].

هذه الفلسفة هي التي طبقتها الدولة المرابطية وسارت فيها بنجاح إلا من تعثرات لابد منها لكل نظام، فأكسبتها نجاحا باهرا مستمرا، وتجاوبا مع أغلبية المواطنين، واستقرارا مضبوطا أعان الدولة على توسيع إمبراطوريتها وإقامة عدل الله فيها.

وهذا السلوك الإسلامي الذي كان ركيزة الدولة صاحبها حتى في أحلك الظروف، فموقف علي بن يوسف بن تاشفين مثلا من محمد بن تومرت – مع أنه نصح بالقبض عليه – كان غاية في التعامل الإسلامي الذي لا تؤثر سياسة ولا حسابات ولا مصالح خاصة منبثقة عن توجهات أدركها السياسيون المحترفون من كتاب وبعض الوزراء كمالك بن وهيب الذي قال فيه أعداؤه:

[98] – النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين – إبراهيم حركات ص 10.

دولة لابـــن تاشـــفين علـــي — طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الـــشيطان دس إليهـــا — من خباياه مالك بـــن وهيـــب

وهو الذي أشار على علي بن يوسف بقتل محمد بن تـــومرت أو سجنه، ولكن نصيحته لم يعمل بها كما في وفيات الأعيان ج 5 ص 50.

ولم يدركها الملك الذي كان سياسيا متمرسا – بل أدركها – ولكنه كان نقي السريرة نقي الثوب والسلوك لم يشأ أن يفعل بمسلم ما طلب منه لمجرد أنه لسن أفحم غيره وبين أشياء وتحدث عن منكرات.

ومما أنكروه تساهل الدولة في اقتراف المنكرات كالزنا والخمور وما إليهما، وهو ما اتخذه ابن تومرت بعد ذلك مطعنا أساسيا ركز عليه وبالغ حتى سقط النظام.

وإذا أبعدنا ابن تومرت لأنه كان يريد تل عـــرش المـــرابطين فاستغل كل الأسلحة فهل صحيح كانت الحالة وفق ما قال آخرون.

وهل كان المجتمع منحلا إلى درجة كبيرة تجيش لهـــا الجيـــوش – وإن ظاهريا – ؟

وهل خروج أميرة سافرة وقولها الشعر يدخل في هذه الخانة؟

والشعراء الذين هجوا الدولة أليسوا من الأنـــدلس؟ وهـــل كانوا أئمة صالحين؟ ولماذا هجوها؟

الأمر – فيما نرى – واضح:

أولا: لأنها لم تعطهم أموالا ليست لهم بـــل هـــي للمـــسلمين بالدرجة الأولى.

ثانيا: لأنهم لم يجدوا الحياة التي كانت ســـائدة أيـــام ملـــوك الطوائف وهي معروفة.

ثالثا: إن المجتمع في المغرب غيره في الأندلس، فهو بعيد عن الرخاوة الأندلسية والحياة المترفة ولو لعينة من القوم، والوقت الضائع سدى.

فهل لنا أن نقول: إذا كانت هناك فعلا أشياء منكرة في المجتمع – وهي كائنة – فإن عددا من الوافدين من الأندلس شاركوا فيها وأظهروها ومارسوها وبالغوا... ثم جاءوا في الأخير ينتقدون الدولة ويتهمونها بالتقصير، ومع ذلك نحن لا نبرئ لا ساحة الدولة إلا في رمزها الأعلى وبعض المحيطين به، ولا ساحة المجتمع لأن مده وحركيته متباينة، ولكن كانت هناك قواعد تراعى ومثل تحترم، وأخلاق تطلب، وفروض دينية تؤدى.

ولعلنا نحسن صنعا إذا أشرنا إلى بعض النقاط نرى أنها قريبة من بحثنا:

1- المرابطون وسنية الدولة:

وسنيتها متمثلة في اعتمادها على الفقهاء الذين كانت لهم الكلمة الأولى والأخيرة ورغم أن دولة الفقيه كثيرا ما تحصل لها تعثرات من خلال عدم القدرة على الملاءمة بين النص الشرعي والظرف المعاش، وإيجاد حل يوائم بينهما يراعي المصلحة اليومية ولا يحدث خدشا في الدين. فإن الأمور سارت على نحو كبير من الاستقامة والصلاح.

ثم إن الفقهاء لم يكونوا على مستوى واحد في الثقافة وتمثلاتها، فالثقافة الشرعية ما لم يصاحبها تفتح عقلي، وبحث متسامح، وإنسان منفعل بما يجري حوله، تصاب الحياة بنمطية من المثل القائل (الخروف، أينما اتكأ، اتكأ على صوف) بمعنى أن الحياة تظل رتيبة راكدة ولا مجال فيها للاجتهاد... مع أن الدولة كانت مالكية، والإمام مالك يعتمد في

مذهبه فيما يعتمد: القياس والمصالح المرسلة وكلاهما نوعان مهمان من الاجتهاد والتفتح.

وهذه العقلية المنغلقة لكثير من الفقهاء خاصة المسؤولين والمسيرين هي التي أثرت على السير العام للدولة، وكانت من المعاول التي عجلت بسقوطها بعد تسعين سنة لا غير من قيامها.

وكان الأدباء أول المتأثرين وأطلق بعضهم ألسنتهم هجاء تنفيسا وتعويضا وانتقاما من الدولة ومن العلماء.

فابن بقي يهجو المرابطين:

أكل بني الآداب مثلي ضائع	فاجعل ظلمي أسوة في المظالم
ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها	على عربي ضاع بين أعاجم

وابن البني يقول في العلماء:

أهل الرياء لبستم ناموسكم	كالذئب يختال في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك	وقسمتم الأموال بابن القاسم
وبأشهب شهب البغال ركبتم	وبأصبغ صبغت لكم في العالم

ويقول كذلك:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم	فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة	في أخذ مال مساجد وكنائس

وغلو الشعر ظاهر على كل حال وإن أعطى صورة عن الوضعية حينئذ.

2- الدولة كانت دولة مرابطة وجهاد:

ولقد كان أمراؤها هم السباقين للمعارك، في الأيام الصعبة والليالي الحوالك، وهم الذين قضوا على فتن كثر ضيرها، واشتد خطرها، وفرقت الناس أيدي سبأ، بل وأعادت نور الإسلام إلى وهجيته

بعدما خبا وميضه بسقوط الأدارسة، الذين خسف بهم أعداؤهم ولم تظهر دولة مسلمة في قوة المرابطين إلا بعد مائة وأربعين سنة.

حقق المرابطون إمبراطورية كبرى، وغدا اسم المغرب لامعا قويا يعتد به ويخاف منه وترتعد الفرائص إذا ذكر، ويخطب وده، وترتاده الوفود، وغدت مراكش صاحبة كلمة نافذة، ورأي مسموع، هذا مع عيش محترم، واستقرار مضمون، وتعاون وتساند بين جميع الفئات وتمتع كل المواطنين وكذا كل الطوائف بحقوقهم وواجباهم الدينية والدنيوية بل إن عديدا من النصارى كانوا في جيش الدولة، وأن اليهود رغم ما قيل عنهم "فإن بساتين أغمات اختص بها اليهود وحدهم تقريبا"[99]، وأن المرأة كانت لها مرتبة خاصة وكثيرات من أميرات البيت المالك كن مثقفات وشاعرات يناقشن ويناقشن (بكسر القاف وفتحها).

3- إحراق الإحياء للغزالي:

والإمام الغزالي لا يحتاج إلى تعريف، وكتابه بدوره لا يحتاج إلى تقديم.

فلماذا أحرق؟ هل لأن صاحبه متشبع بعلم الكلام؟ هل لأنه متصوف؟ هل لأنه شافعي؟ هل لأنه عرف كثيرا من المذاهب وتبنى بعضها لمدة ودرسها حتى إذا هضمها تركها ليكتب (المنقذ من الضلال)؟ ولماذا بدأت الحملة الأولى على الكتاب بالأندلس ولم تبدأ من المغرب؟ كل هذا وغيره بحث ونوقش وقيلت فيه آراء حسب مهيع كل باحث وتوجهاته، وقد نقول مع القائلين:

إن هذا الحرق نقطة سوداء في النظام المرابطي.

---

[99] - نفسه، ص: 128.

وقد نقول: إنه تسوية لصراع بين قوى متعددة داخل أجهزة الدولة.

وقد نقول إنه انغلاق ثقافي وتحجر فقهي ومحاولة إماتة حركة ثقافية لا تجعل من المذهب المالكي نقطة ارتكازها، لأن هناك مذاهب أخرى، وأئمتها لهم مركزهم العلمي واجتهادهم الشخصي وتفوقهم الإدراكي.

وقد نقول: إنه انتقام من الثقافة المشرقية التي سادت ساعتها أو كادت ولكن الكتاب أحرق.. وهو ثروة ليس للتنكر إليها من سبيل.

وهو حدث كبير وخطير، له دوافع وأهداف. يقول صاحب الاستقصا: "لم يقع في دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهي إحراق كتاب الأحياء"[100]. ويقال: "إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد رحمه الله، وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم، فاستجيب له فيهم"[101].

وشبيه هذا ما نقل عن الشيخ المليجي الشوشاوي الرجراجي كما في التشوف: "وحدثني علي بن عيسى عن شيوخه أنه لما أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتاب الأحياء للغزالي فأحرق بجامع السلطان، سأل أبو محمد المترجم عن الذي أفتى بحرقه، فكلما سمي له واحدا دعا عليه ثم قال: والله لا أفلح هؤلاء الأشقياء أبدا، فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء"[102]، وكان كذلك أبو محمد المليجي من علماء أغمات.

---

[100] – الاستقصا، ج 2: ص 67.

[101] – نفسه.

[102] – السيف السعيدي الرجراجي سابق، ج: 2، ص: 262.

وكان ميمون بن ياسين – وهو أمير مرابطي – من الذين تلكأوا في إحضار نسخته لولا تهديد من علي بن يوسف.

"ولعل من أسباب نزوع ميمون بن ياسين الصوفي أنه سكن مدينة المرية زمنا، وفيها – كما هو معروف – ظهر عدد من أهل التصوف كابن العريف وغيره، وفيها كان إحراق كتاب الإحياء، فقد أفتى أحد علماء المرية وهو أبو الحسن علي بن محمد البرجي بتأديب من أحرق نسخه وبتغريمه قيمتها، قال ابن الأبار:

وقيل له: "أتكتب بما قلته خط يدك، قال: سبحان الله "كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"، ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه ودفع إلى أبي بكر عمر بن أحمد بن الفصيح وأبي القاسم ابن ورد وغيرهما من فقهاء المرية ومشايخها، فكتب كل واحد منهم فيه بخطه: وبه يقول فلان مسلمين لعلمه وزهده.

فغاظ بن حمدين ذلك، لما بلغه وكسر منه، وكتب إلى قاضي المرية حينئذ أبي عبد المالك مروان بن عبد المالك بعزله... فقال عبد المالك: "فالله يؤتي فضله من يشاء" وقد انتصر بعض علماء فاس وأغمات لكتاب الإحياء، وصدرت عنهم فتاوى في الدفاع عنه والدعاء على الذين أفتوا بإحراقه"[103].

معنى هذا أن معارضة قوية ثارت بعد إحراق الكتاب وتدل على الجو العام الذي كان بالمغرب وعلى الكمية الكبيرة التي وصلت منه أو استنسخت فيه وشرب المتآمر الأول من النبع الذي سقى غيره منه، "وتلك الأيام نداولها بين الناس" كما في القرآن العظيم.

---

[103] – الأمير المرابطي ميمون بن ياسين – محمد بنشريفة ص: 99/98 – طبع وزارة الأوقاف.

4- تأدية فريضة الحج:

ومن القضايا التي كان لها حضورها القوي: قضية الحج، هل يقوم الناس بأداء الفريضة رغم صعوبة الطريق وخطر اللصوص؟ أم يتركونها تقية إلى أن تتحسن الظروف؟ وكان من الذين أفتوا بسقوط الحج عن المغاربة والأندلسيين الفقيه ابن رشد الجد، الذي قال: "فرض الحج ساقط في زماننا هذا عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة وهي القدرة مع الأمن على النفس والمال"[104]، وقال: "وإذا الفرض صار نفلا مكروها للضرر"[105]، ووافقه الفقيه أبو بكر الطرطوشي بقوله: "حرام على أهل المغرب، فمن خاطر وحج فقد سقط فرضه، ولكنه أثم بما ارتكب من الغرور"[106].

بينما الفقيه أبو بكر بن العربي الذي سبق له أن حج مع والده ورجع بسلام، يقول: "والعجيب ممن يقول: إن الحج ساقط على أهل المغرب وهو يسافر من قطر إلى قطر ويخرق البحار ويقطع المخاوف في مقاصد دنيوية، والحال واحد في الخوف والأمن"[107]. وقد كانت رحلة الحج فعلا محنة من محن الدنيا لا يقتصر ضررها على المكوس وحقوق الدولة، بل الأخطر كان هم الأعراب الذين يقول فيهم ابن جبير في رحلته: "وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ومؤونة إلى أن يسر الله رجوعه إلى وطنه"[108].

---

104 - نفسه، 42.

105 - نفسه.

106 - نفسه.

107 - نفسه.

108 - نفسه.

"... ومن بلاد المصامدة رجال رجراجة وهم الذين حجـوا – فيما يقال – في العهد النبوي، ومن مراكز المصامدة مدينة نفيس ومدينة أغمات، ويبدو أن بعض أهل هذه المدينة الأخيرة قاموا بـأداء فريـضة الحج، في القرن الرابع الهجري ومروا في عودهم بمدينة القيروان ولقـوا الإمام بن أبي زيد القيرواني قبل وفاته سنة 383هـ"[109].

رباط شاكر والتصوف والدولة:

ظل الرباط الشاكري كما كان سابقا مكانا للتبتل والخـشوع ومعهد للعلم والتلقين وملتقى للمتصوفين يفدون إليه من كـل حـدب وصوب، ذكر الله يؤلف بين قلوبهم، والتفكر في عظمتـه يوحـد بـين أرواحهم، والأمل في الوصول إلى الغاية العليا، وهي رضا الله يـدفعهم لبلورة تجاربهم، والعمل دون كلل للحاق بالناجحين الواصلين منذ عرف الرباط بهذه الخاصية، وقد كانت الحرية مكفولة لـرواده يفعلـون مـا يشاؤون ويذكرون كيف يحبون متى كان الجو صافيا رقراقا والـسلطة المسلمة آخذة بالزمام، أما إذا كانت الصورة عكسية واستأسد الطغيان فذاك شأن ثان.

في العهد المرابطي تبدلت النظرة وانزاحت الغيـوم وتـنفس الناس الصعداء، فلأول مرة تقود دولة بهذه الربوع في هذا المستوى من القوة والأتباع والصيت الكبير الجميل.

ولأول مرة تسير الأمور دولة سنية غير متحيزة وغير متـشبعة لا باعتزال ولا تشيع، وغير مدافعة لا عن رأي وافد من العراق ولا عن تفلسف ينسب لليونان وإنما هي سائرة وفق ما عرف به المذهب المالكي وقرره علماؤه الأفذاذ.

---

[109] – نفسه.

ولأول مرة تبسط دولة من الجنوب سلطتها، بسحر الصحراء وعظمتها وتلون تضاريسها وصفاء رؤيتها وجدية مواقفها ومعقولية سلوكها.

ولأول مرة يلتقي الشرق بالغرب والشمال بالجنوب في وحدة الناس فيها كأسنان المشط ولأول مرة كذلك يلتقي المتصوفون وقد خرجوا من دوائرهم الضيقة التي كانت تحصى فيها أنفاسهم بفعل ما يتعرضون له من القوات البرغواطية التي استبدت وطغت لآماد طويلة، فشعر الناس بألوان جديدة من الطمأنينة والتعامل الجيد والشعور بالمسؤولية.. فتعاملوا هم بدورهم معها ومدت القبائل الأيدي للدولة، وانتشر الأمن والتصافي، فاشتغل كل واحد بما يهمه ويطمح إليه.

المتصوفون والعلماء:

ومن عجيب ما في الأمر أن أغلبية المتصوفين كانوا علماء والعكس، فنمت بينهم تلك الآصرة الطيبة التي كانت دافعا للتقدير والاحترام سواء في ساحات الربط للعبادة والتهجد وذرف الدموع... أو في الساحات اليومية العملية السياسية، وفي التقاء الكثير منهم في قضية حرق الأحياء أكثر من دليل، حتى دعا الأمر أمير المسلمين عليا للتنقل هنا وهناك، ليخفف من ثقل الحالة المترتبة عن الحرق وليحد من تداعياها.

كان للعلماء دور بارز هام ولكنهم العلماء الذين قال فيهم محمد بن محمد العبدري الحيحي:

ألا لست أعني بالتفقه ما حـوت — دفاتر تملى من ظنـون رجـال
ولكنه فقه عـلا عـن تنـاقض — ولـيس لآراء الـورى بمجـال

....

فإن أنت لم توصل لحل وصـالها — فدعني وإياها حليف وصال[110]

وليس هذا الموقف مقصورا على العلماء المتصوفين في العهد المرابطي فحسب، فكل الدول التي تعاقبت على المغرب كان للعلماء فيها دور بالغ وكذا المتصوفين ولو من باب النصح والإرشاد حتى إن كتب التاريخ المغربي "تحوي من الصوفيات أكثر مما تحويه مصنفات الشرق، لأن الدور الذي قام به التصوف المغربي في الميدان السياسي لا يكاد يضاهى، ويكفي أن نعلم أن أسرا مالكة لم تتمكن من زمام الحكم بالمغرب إلا بفضل روابطها مع الصوفية الذين بلغت سلطتهم الروحية على الشعب مبلغا أصبحوا يوجهونه الوجهة التي يرتضونها"[111].

ولم يكن الود صافيا:

نعم لم يكن الود صافيا تمام الصفاء بين الدولة والمتصوفين، خاصة وأن الدولة تنكرت لبعض القبائل التي آزرتها، والتي أعطت متصوفين كثيرين... ولقد أشرنا إلى هذه النقطة في كتاب (رجراجة وتاريخ المغرب)[112].

ومع ذلك، ورغم أن رباط شاكر على مرمى حجر من العاصمة مراكش، فلم يسجل أحد أنه ضيق عليه أو حذف موسمه السنوي أو ألقى فيه القبض على متعبد أو متصوف بل بالعكس فإن السلامة كانت ناشرة ألويتها وكانت الأبواب بينه وبين الدولة مشرعة.

---

[110] – المتعة والراحة، سابق، ص: 68.

[111] – معلمة التصوف الإسلامي، سابق، 55/1.

[112] – سابق، ص: 30.

نماذج من متصوفي العهد المرابطي:

ومن المتصوفين:

الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء الله (ابن العريف):

وبعد أن ذكر صاحب السعادة الأبدية الذين تعرضوا لترجمته كالتادلي وابن خلكان والنبهاني واليافعي قال: "إنه رضي الله عنه أحد الأولياء المتسمين بالعلم والعمل والزهد، وكان من الفقهاء والمحدثين والقراء المجودين، ثم غلب عليه الزهد والورع والإيثار فأصبح من أعلام الصوفية متناهيا في الفضل والدين، منقطعا إلى الخير، يقصده العباد والزهاد، وكانت له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالقراءات وجمع الروايات واهتمام بطرقها وجملتها، وله كتاب المجالس وغيره من الكتب المتعلقة بطريق القوم، وله نظم حسن في طريقهم أيضا"[113].

ومن كلامه رضي الله عنه: "إذا أراد الله أن يهيء عبدا للإمامة والاقتداء، شغله في أيام غفلته بعلم الظاهر من القراءة والعربية والفقه والحديث، ثم ينقله إلى علم الأحوال والمقامات، فعند ذلك يستحق الإمامة والتقدم"[114].

ومن شعره الرائع:

شدوا الركاب وقد نالوا المنى بمنى	وكلهم بأنين الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تبدي روائحها	طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم	روح إذا شموا من ذكره فاحا
يا واصلين إلى المختار من مضر	زرتم رسوما وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر	ومن أقام على عذر كمن راحا

---

113 – الشيخ محمد بن عبد الله الموقت، ص: 59/58 في السعادة الأبدية.

114 – نفسه.

وقد ابتلي في عهد علي بن يوسف بمؤامرة تولى كبرها القاضي ابن حمدين فنقل الشيخ إلى مراكش حيث ظهرت براءته، وسم من قبل ذلك القاضي الذي كيل له بنفس الكيل، وتوفي سيدي أحمد بن العريف بمراكش سنة 536، ودفن بها حيث قبره من أجل المزارات ومظان البركات.

الشيخ أبو محمد عبد الله المليجي:

قال عنه صاحب السيف المسلول: "كان هذا الرجل شديد الورع، يراقب نفسه كل يوم مرات، منقطعا إلى الله، مجتهدا في الليل، متقشفا في مأكله وملبسه حتى اسود جلده من كثرة العبادة"[115].

قال في التشوف: "كان من أقران عبد الجليل بن ويحلان من الأكابر، شديد الورع والزهد والتقشف، ولما احتضر أوصى أن يغسله عبد الجليل، فسمعوه يقول له وقت غسله: "لقد استرحت يا أبا محمد، فلما أدرجه في أكفانه قيل له: لقد سمعناك تقول عند غسله: لقد استرحت يا أبا محمد، فقال: كان عهدي بجسمه أسود من العبادة والتقشف، فلما جردته من ثيابه لأغسله رأيت بدنا ناعما ليس بالذي عهدت"[116].

"وحدثني مخلوف بن ياسين، حدثني الشيخ الصالح منصور بن عبد الرحيم عن شيخه يحيى بن ياسولال قال: جاء السلطان من مراكش إلى أغمات أوريكة فزار عبد الجليل ابن ويحلان وعبد الله المليجي، وبعث إلى كل منهما ألف دينار، فأما عبد الجليل فأخذه وتصدق به على المساكين، وأما عبد الله فرده عليه، فقال عبد الجليل: هلا تصدقت به ولم

---

[115] – السيف المسلول، سابق، 262.

[116] - نفسه.

ترده عليه فقال له: إن أخذت أنت فإن عندك من العلم ما تقبل به وتعطي، وأما أنا فما عندي من العلم ما آخذ به وأعطي"[117].

وهو من أغمات أوريكة وبها مات قبل الأربعين وخمسمائة كما في التشوف.

الشيخ ميمون الصحراوي اللمتوني (سيدي ميمون):

كان رحمه الله إماما في العلم وجاء به أولاد يوسف ابن تاشفين بقصد القراءة عليه، فمات رحمه الله بمراكش ودفن بها سنة ست وخمسمائة، وكان من أهل الصلاح والطب الروحاني، وكان يقصد لمس الجن حال حياته لأنها كانت تخدمه، وانسحبت تلك البركة على قبره، ومقامه اليوم صار محلا للزمنى والمرضى لا يكاد يخلو منهم خصوصا النساء.

صحب الشيخ أبا محمد عبد الخالق الدغوغي، توفي في التاريخ المتقدم وبنيت عليه قبة حافلة بناها السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي، وقبره مزارة مشهورة"[118].

الشيخ أبو جبل:

توفي سنة 503 ودفن بخارج باب أصليتين من أبواب فاس.

جاء في الأنيس المطرب بروض القرطاس: "وكان جزارا أسود اللون، مليح الوجه نقي القلب، أحد المخلصين الخائفين من الله تعالى، ويقال إنه رأى الخضر عليه السلام بعد أربعين سنة من إقباله إلى الله تعالى ومجاهدته، فبشره أن الله قد أثبته في الأبدال وكان كثير السياحة في الأرض وهو القائل:

---

[117] – نفسه.

[118] – السعادة الأبدية، سابق، 155-118.

سافر لتكسب في الأرض فائدة	فرب فائدة تلقى مع السفر
ولا تقم بمكان لا تصيب به	شيئا ولو كنت بين الظل والزهر
فإن موسى كليم الله أعوزه	علم تكسبه في صحبة الخضر[119]

الشيخ محمد أبو الأمان بن يلارزج:

جاء في التشوف: من بني مصطاو، كان من الحفاظ لمذهب مالك رحمه الله، ويقال إنه درس الفقه على عبد العزيز التونسي بأغمات، وكان عبدا صالحا مات قبل 540هـ ودفن برباط حكم من بلاد هسكورة.

حدثوا عنه أن علي بن يوسف خرج من مراكش لزيارته، فلم يرد أبو محمد أن يدخل إليه فخرج إليه من داره ولقيه في الفحص وقعد معه ساعة ثم افترقا فلما احتضر أبو محمد قال لأخص أصحابه: أدن مني، فدنا فقال له في أذنه: كانت لي أحوال ففقدها من يوم اجتماعي بالسلطان وحديثي معه، فإياك ولقاء الناس.

رأيت الانقباض أجل شيء	وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلق سالمهم ودعهم	فخلطتهم تقود إلى الندامة
ولا تعبأ بشيء غير شيء	يقود إلى خلاصك في القيامة[120]

ومع دولة الموحدين:

كون الموحدون دولة ذات قوة ومناعة وسلطة عظيمة في مختلف المجالات: علمية وثقافية وسياسية وعسكرية وأمنية واقتصادية وعمرانية، ولا يعنينا الآن البحث في سياستها الداخلية والخارجية، ولا قمعها للثائرين عليها ولا فتوحاتها في الأندلس أو إفريقيا ولا تحديثها

---

[119] - ابن أبي زرع، ج: 2، ص: 99، ط: (1355-1936)

[120] - التشوف، ص 152.

للمجتمع عن طريق العلم والعناية بالصحة بقدر ما يعنينا أن نقف لحظات حول المجال الصوفي ودور رباط شاكر أيامئذ.

ظرف موات لنتائج قائمة:

كان الظرف الذي قام فيه الموحدون بالأمر ظرف تصوف بامتياز نتيجة:

1- تضاعف اتصال المغرب بالمشرق عن طريق الوفود التجارية والعلمية والحجية والقبائل المهاجرة من هناك.

2- تكوين الدولة وإرساء قواعدها، رسوا شديدا ومتينا، فالمرابطون وصل نفوذهم حتى إلى الأندلس وتلمسان، والموحدون لم يقفوا إلا عند الحدود الليبية وكانوا قادرين على المزيد لو سلموا من التآمر الشرقي والغربي.

3- تطور المجتمع المغربي تطورا مهما نظرا للحركات المتماوجة داخله وللاختلاط الكبير الذي طرأ على بنيته السكانية سواء عن طريق الوفود القادمة للعاصمة أو عن طريق الهجرات المتعددة حيث كانت كل الطرق توصل إلى المغرب وتخطب وده، إضافة إلى أن المنطقة ذات جذب وجاذبية، وإضافة مرة ثانية إلى أن العالمين الإسلامي والمسيحي منشغلان، الأول يدافع عن حقه في الحياة وعن دينه وحضارته، والثاني يريد القضاء على كل ذلك.

4- الجو السياسي الداخلي الذي لم يكن مستقرا استقرارا تاما، فكثيرا ما تقوم ثورة هنا، وشغب هناك والدولة ملزمة باستتباب الأمن، ومعلوم ما قاسته مع ابن غانية وغيره من الثوار.

5- اختلاف المذهب وما أحدثه في النفوس من رجة وانتكاس، فالمرابطيون كانوا سنيين، والمذهب المالكي هو مذهب الدولة المطبق وعلماؤه لهم الحظوة الكبرى، بينما الموحدون كانوا فاطميين، وألف لهم

زعيمهم ومنظرهم المهدي بن تومرت كتبا فقهية تتماشى والنظرة الفقهية الشيعية، وحاولت الدولة وإن في عهدها الأول أن تفرض هذا النوع من الثقافة الدينية فكان لابد أن تحدث قلاقل واضطرابات.

وفعلا، قامت ثورات عديدة هددت حتى العاصمة مراكش، والعجيب أن الثورات الأشد نكاية على الدولة وعلى الثوار أنفسهم جاءت من المنطقة المصمودية البربرية شأن الدولة نفسها يقول ليون افريقي: "ومهما كان الأمر، فإن الثورة اشتعلت من **1147** إلى **1149**م من الشمال إلى الجنوب سواء في حاحا أو في ركراكة ودكالة، وكان قمع الثورة رهيبا، فقد دخلت جيوش الموحدين في حرب عاقبت خلالها بالتتابع ركراكة ودكالة وهسكورة ومنطقة تادلا، ومع ذلك فإن هذه الحملات التأديبية لم تبد في أعين عبد المؤمن كافية، ولذلك قرر من أجل إرساء سيطرته وإرساء الإيمان بقاعدة التوحيد القيام بعملية تطهير شاسعة، فبناء على لوائح مهيأة مسبقا بعناية، تم ببرودة إعدام **37720** ضحية من بين ساكنة مصمودة السهل، مما جعل حدا لكل إمكانية خارجية للنهوض من جديد"[121].

بل إن هذا العقاب شمل حتى الأموات، فبعد دخول عبد المؤمن مراكش وقتل من كان بها من اللمتونيين بحث عن قبر يوسف بن تاشفين "فأخفاه الله وستره وتلك عادة الله مع الصالحين المصلحين"[122].

التصوف والظرف الراهن:

في هذا الجو فرخ التصوف وباض، وكثر خيره وفاض، لا للانكفاء على الذات فقط والعزلة في الكهوف وتطليق الحياة ومشاكلها كلها، بل لتربية الناس سلوكيا وتربويا وعقديا وزرع النخوة في نفوسهم

---

[121] – رجراجة وتاريخ المغرب، سابق، ص: 29.

[122] – المعجب للمراكشي، ص: 272.

والعمل على طاعة أولي الأمر متى راعوا حقوق الله في عباده، وهذه هي الفترة التي ألف فيها القاضي ابن الزيات التادلي المتوفى سنة 627 أو 628هـ كتابه التشوف إلى رجال التصوف، ويعد أهم كتاب في هذا المجال عن تلك الفترة التي كانت فيها القوة شديدة والشكيمة حديدية.

ولقد كان متفتحا بتعبير اليوم وهو يتناول الصوفية والمتصوفين ليخلص قائلا: "والذي يعول عليه أن الصوفي هو المنقطع بهمته إلى الله تعالى المتصوف في طاعته"[123].

وصدق الفقيه التادلي فإن المتصوف هو المنقطع بهمته إلى الله تعالى المتصوف في طاعته، ومن طاعة الله العناية بعباده.

ومن هذا المنطلق امتاز التصوف المغربي عن التصوف المشرقي بـ:

1- السهولة وعدم إيلام الذات إيلاما شديدا عدا بعض الأفراد الذين هداهم اجتهادهم إلى الابتعاد الكلي والزهد في ملذات الحياة بالمرة، والتنكر لكل ما يبعدهم عن عبادتهم.

2- البعد عن المراكز التي كان لها تأثير في التصوف الشرقي كالهند التي كانت مليئة بالطرق والأشكال والطقوس، وكالصين وحتى اليونان ذات القصص الخرافية عن الآلهة والأبطال دعك من أحبار اليهود وقسيسي النصارى والطقوس الكنسية.

3- الصوفيون في المغرب كانوا في أغلبيتهم فقهاء ومدرسين ومجاهدين وفلاحين وكسابين ومن لم يكن عالما كان حظه من حفظ كتاب الله كبيرا.

4- بعدم المغالاة والتلفظ أمام الناس بألفاظ أساسية ذات حمولات وازنة لا يفهمها على حقيقتها إلا من كان من أهل القوم، وذلك كقول أحدهم:

---

[123] – التشوف المقدمة.

"أنا النقطة التي تحت الباء".

أو كقول الآخر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنــا نحن روحــان حللنــا بــدنا
فإذا مــا أبــصرتني أبــصرته وإذا مــا أبــصرته أبــصرتنا

وكانت أبيات المتصوفة رابعة العدويــة مــشهورة، ورغــم سلاستها وسهولتها وقربها من النفس والفهم، فليس بمقدور أي واحــد أن يتعامل معها إلا تعاملا سطحيا قريبا من الحب المادي ليس إلا:

أحبــك حــبين حــب الهــوى وحــب لأنــك أهــل لــذاكا
فأما الــذي هــو حــب الهــوى فشغلني بــذكرك عمــن ســواكا
وأمــا الــذي أنــت أهــل لــه فكشفك للحجــب حــتى أراكــا
فــلا الحمــد في ذاك ولا ذاك لي ولكن لك الحمــد في ذا وذاك[124]

بينما في المغرب نجد شعرا ونثرا ولكنه مغلف بذلك التواصل السهل مع النفس والذات والمحيط، وغالبا ما نجد أغلب مــا يقولــون متشحا بنغمة النصيحة والتحذير من الدنيا كقول أحدهم:

إن الفساد في ثلاث اجتمــع شح وعجــب وهــواء متبــع
ثم ثلاث بعده قــد حجبــت أبصارنا عن الهدى فانطمــست
حب الرياسة وحب الــدرهم وطاعة النساء أيضا فــاعلم[125]

وكقول أبي عبد الله محمد العبدري من قصيدة ينصح ابنه:

---

[124] – تاريخ الفكر العربي، عمر فروخ.

[125] – المتعة والراحة، سابق، ص: 547.

وكن بالله ذا ثقة تقيا — ولا تغبط بني سوى تقي
ونل بالزهد مرتبة المعالي — فلم يزهد سوى عال سري
وليس سواه للأرواح روح — يتيه بها الفقير على الغني
فشد به يديك وكن ضنينا — بوجهك أن تعرضه لكي
بني يسوءني أن أراك عبدا — لغير الواحد الصمد العلي[126]

5- لم يصطدموا مع العلماء – وإن كان بعض النكير – كما وقع في المشرق، وما وقع من اضطهاد السلطة لبعض المتصوفين فمرده لأسباب سياسية محضة خاف فيها الحاكم على سلطته بل: "إن التصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا، فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره"[127].

صور من الاضطهاد:

ومع ذلك فقد وجدنا الدولة سواء على العهد المرابطي أو الموحدي تشدد النكير على العلماء والمتصوفين وتؤذيهم إذايات بالغة، وتأتي بهم من الأقاصي البعيدة للعاصمة لتمتحنهم أو لتسجنهم أو لتنفيهم قربها بعيدين عن أهليهم وذويهم، وكثير من هؤلاء لم يكونوا ثوارا ولا حاملي سلاح وإنما هم في عبادتهم منطلقون، وبتربية مريديهم مشتغلون وبالانكباب على مصالح عائلاتهم عاملون، وهذه أمثلة:

الشيخ أبو شعيب أيوب السارية: نكل به كما في المستفاد والتشوف وأشخص إلى مراكش مهانا وامتحن، وفعل كذلك بأصحابه، ويبدو أن السلطة الموحدية لم تغض الطرف عن نشاطات أبي شعيب أيوب ووضعته هو وأصحابه تحت المراقبة الشديدة، بل لم تتورع عن

[126] – نفسه، ص 70.

[127] – التصوف الإسلامي بالمغرب، علال الفاسي، ص: 21/20.

التنكيل بهم في بعض الأحايين كما نستشف ذلك من موقف والي أزمور اتجاه هذا الوالي، فقد أمر الوالي يوما بإحضار جماعة للقتل ففزع الناس إلى أبي شعيب فأخذ في البكاء فقال لهم: "والله ما ابتليتم بهذا إلا من أجلي، ولو مت لاسترحم مما نزل بكم"[128].

الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن وجماتق الرجراجي: الذي له ذكر وأي ذكر وترجمته في التشوف بطول سبع صفحات، وقد ظل على مقاطعة الدولة وانتقاده لها علانية مما جعله موضوع متابعة وملاحقة مستمرين، فالقاضي ابن الزيات يخبر أنه بعد صلاة الجمعة في مسجد قرية اكوز، قام أبو إبراهيم يعظ الناس فتكلم في حق العامل وبحضوره بكلام خاف منه الناس وحملوه إلى السجن وجعلوه في مطمورة عميقة (...) وأمر الكاتب من يكتب كتابا إلى حضرة مراكش[129].

وكذلك فعل بأبي يعزى، وأبي مدين الغوث الذي توفي بالعباد من الجزائر قبل أن يصل إلى المغرب... وآخرين متعددين كالقاضي عياض وأضرابه.

نوع من ردة الفعل:

وتعسف السلطات الموحدية دفعت بعض المتصوفين إلى الثورة وشق العصا، ومن هؤلاء أبو محمد تيلجي بن موسى الدغوغي الذي شارك في ثورة عتاب على أبي يعقوب يوسف، فقد جاء في التشوف: "قال داوود، وحدثني أبو محمد قال: طلبت في أيام عتاب طلبا شديدا ولو وجدت لقتلت"[130]، واضطر لمغادرة المغرب ليعيش منفيا خارجه.

---

[128] – المستفاده ج1، ص: 46، والتشوف، ص: 188.

[129] – رجراجة وتاريخ المغرب، سابق 53، (حليمة بركات وحميد التريكي كتب المناقب كمادة تاريخية)، ص: 57.

[130] – التشوف، ترجمة التليجي.

وإذن لم يكن متصوفو هذا العهد جامدين قانعين بالذكر وحده منعزلين عن العالم وإنما كانت هناك نماذج صالحة، ثائرة على الأوضاع السائدة إذ ذاك، يتحلق الناس حولها، يرجون فضلهم ويواسونهم في محنهم بل ويتوسطون حتى عند الحاكم كما فعل أبو محمد صالح في قضية بعض أفراد عائلة علي بن يوسف الملك المرابطي.

"أما رباط شاكر وهو الرباط الذي ذاع صيته في العالمين بما كان يحضر في موسمه كل رمضان، بل وفي الأيام العادية من متصوفين ومتصوفات وأصحاب الشأن فلم ينجو بدوره من التنكيل والعقاب حيث أصبح آخر القرن السادس الهجري يشكل مركز اصطدام حاد بين الأولياء والمريدين من جهة، وممثلي السلطة الموحدية من جهة أخرى، حيث استغل الموحدون ذلك لخنق الرباط وتحييده بشكل عنيف باعتباره بؤرة محتملة لمعارضة سلطتهم"[131].

وهذا واضح ومقبول بل هو الواجب في نظر السلطات، فإذا وضعنا في الاعتبار:

- الكثرة العددية التي تعتبر مؤتمرا يوميا خاصة في رمضان حيث تصل الآلاف، بما يترتب من نتائج عن مذاكراتها وعباداتها وتمازج أفكارها والإنصات إلى علمائها وكبرائها ومتصوفيها ونسائها اللواتي شرفن المرحلة.

- المتصوفين الذين ليسوا على وفاق مع الدولة ولا ينظرون إليها نظرة الود والحب أو على الأقل الاحترام والحيدة.

- القرب من العاصمة، وكل حركة مخلة بالنظام أو حتى مشكوك في أصحابها لابد أن تكون لها آثار على تسيير دواليب الدولة.

- الرباط يقع في منطقة منظور إليها باحترام سواء من ناحية متصوفيها أو من ناحية وقوفها في وجه البرغواطيين أو من ناحية مشاركتها في الثورة على الدولة في بداية أمرها، بل إن أحد أفرادها ثار

---

[131] - رجراجة وتاريخ المغرب، سابق 32

وكون إمارة بتونس، وحارب عمالها وأمراءها هنـــاك، إذا وضــعنا في الاعتبار كل هذه المقتضيات عذرنا الدولــة في حـــسابها وإن رأينـــا أن التضييق والعقاب مبالغ فيهما...

نماذج لمتصوفي العهد الموحدي:

الشيخ أبو العباس السبتي:

هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، ولد بـسبتة وانتقــل لمراكش شابا يافعا، وبقي بجبل جليز عشرات الــسنين، ثم أذن لــه في الدخول إلى المدينة، كان من العلماء المجدين المتصوفين المجتهدين الداعين إلى الله، عن طريق الاتجار مع الله بواسطة الصدقة والإحسان الذين بــنى عليهما مذهبه، "خرج أبو القاسم عبد الرحمان بن إبراهيم الخزرجي قال: بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة، وقال لي: إذا رأيت أبـا العبـاس السبتي بمراكش فانظر مذهبه وأعلمني به، قال فجلست مع السبتي كثيرا إلى أن حصلت مذهبه، فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد هـذا رجـل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود"[132].

من ورده المكتوب بخط جميل على الجدار بزاويته والذي يقرأه المريدون صباح مساء "... يا من بيده القلوب أصلح قلوبنا، ويـا مـن قلت في حلمه الذنوب اغفر ذنوبنا، ويا مصلح الأسرار صف أسرارنا، ويا مزيح الأكدار عف أكدارنا، قد أتيناك طالبين فلا تردنـا خـائبين، وجئناك تائبين، فاجعلنا برضاك آمنين، وحضرنا ببابك سائلين، فلا تجعلنا إلى غيرك مائلين، وأصلح كل قلب منا قسا فعسى أن يلين، واسلك بنا منهاج المتقين، وألبسنا خلع الإيمان واليقين، وحصنا بـدروع الـصدق فإنهن يقين، ولا تجعلنا ممن يعاهد على التوبة فيكذب ويمين، وانقلنا مـن أهل الشمال إلى أهل اليمين، يا أرحم الراحمين وصلى الله على سـيدنا

---

[132] – الاستقصا، سابق، 2-235.

محمد إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"[133].

ولد سنة 524، وتوفي سنة 601، وضريحه بمراكش مزارة كبرى عظيمة، وقد ذكر صاحب الصفوة أن أحمد بابا السوداني زاره أزيد من خمسمائة مرة"[134].

الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش:

- ابن أبي بكر علي بن حرمة بن عيسى وينتهي إلى الخليفة الرابع سيدنا علي بن أبي طالب.

والشيخ بن مشيش علم من الأعلام الصوفية: قدوة كبرى، وحجة عظمى، بذل في سبيل الله الكثير وقد كان معينا ثرا، وبحرا لا ساحل له في علم التصوف والقوم، له أذكار عجيبة، وصلاته المعروفة بالصلاة المشيشية، فيها من الأسرار ما لا يدركه بشر، ولا يحوم حوله بصر: "اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط". توفي جراء مؤامرة حيكت ضده من أبي الطواجين الكتامي، فاستشهد رحمه الله بجبل العلم سنة 622 أو 625، وقبره هناك مشهد عظيم، زاره الشيخ التاودي بن سودة سبعين مرة كما في معلمة التصوف بالمغرب ج: ص 75.

الشيخ أبو زيد عبد الرحمان السهيلي:

ولد رحمه الله سنة 508 بالأندلس، وتوفي بمراكش سنة 581 وهو مكفوف البصر العالم الكبير، والولي الشهير، له في مقامات

---

[133] – الأعلام لعباس بن إبراهيم، ط 1، ج 1، ص: 334/333.

[134] – معلمة التصوف، سابق، ص: 75.

الصالحين رتبة عالية، وله بين المؤلفين سمعة سامية، "كان مالكي المذهب، عارفا بالفقه والعربية واللغة والقراءة والكلام والأصول والأدب بارعا في ذلك جامعا بين الرواية والدراية، عالما بالتفسير وصنعة الحديث، حافظا للرجال والأنساب والتاريخ، واسع المعرفة غزير العلم نبيها ذكيا، صاحب اختراعات واستنباطات ونوادر غريبة، وبوادر في الخيرات عجيبة، وصلاح وفلاح، حافظا عالما شهيرا"[135].

من مؤلفاته: الروض الأنف في السيرة النبوية من ثلاثة أجزاء.

ضريحه خارج باب الرب بمراكش مزارة مقصودة، عليه قبة حافلة بناها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وله شعر جيد ومن تلك القطعة الرائعة التي قالوا عنها: "ما سأل أحد ربه بها حاجة إلا أعطاه إياها، وهي:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكي والمفزع
يا من خزائن ملكه في قول كن	أمنن فإن الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجدك أن تقنط عاصيا	والفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبي وآله	خير الأنام ومن به يستشفع

وأخيرا...

لقد عاش رباط شاكرا مخلدا في الدهر. وظل رمزا شامخا في كل الأسر الحاكمة، وكم زاره من ملوك وعظماء وعلماء، وقد أشرنا لسيدي محمد بن عبد الله والمولى الحسن الأول، وها هو أمير المؤمنين محمد السادس، يجدد ما يلي ويعيده إلى الواجهة ويحقق ما قاله الشاعر:

---

[135] - السعادة الأبدية في ترجمة الشيخ.

تلك آثارنـــا تـــدل علينـــا فـــانظروا بعـــدنا إلى الآثـــار

إن رباط شاكر ذاكرة مغربية رائعة عمرها حتى الآن 1364 سنة.

وهو اختصار لتاريخ المغرب الذي منذ شهد شهادة الحق "لا إله إلا الله محمد رسول الله" صلى الله عليه وسلم وهو مرفوع الهامة، طويل القامة، منصور محفوظ، موفق محظوظ، فأتم اللهم نعمك عليه.

وبعد:

فهل ترانا قلنا كل شيء في هذا التعريف الوجيز عن شاكر ورباطه؟

طبعا لا... ولكنه جهد وخطوة يقال فيهما ما قاله الفقيه أبو محمد المدني كنون في أحد شروحه (هذا الشرح إن لم يقتل فهو يجرح).

كمل والحمد لله في يـــوم الأحـــد 26 ج الأولى 1426 / 3-7-2005.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الملاحق

- الرسالة الملكية الأولى للملتقى الأول بتاريخ 24 رجب 1425ـ1 شتنبر 2004.
- الرسالة الملكية الثانية لجلالة الملك محمد السادس للمشاركين في الدورة الوطنية الثانية للقاء سيدي شيكر (إقليم أسفي) المنتسبين للتصوف، بتاريط 2009/09/19
- أشرف بقعة وأقدس بناحية مراكش

الرسالة الملكية الأولى للملتقى الأول

بتاريخ رجب 1425 - 1 شتنبر 2004



حمد الله ملك المغرب

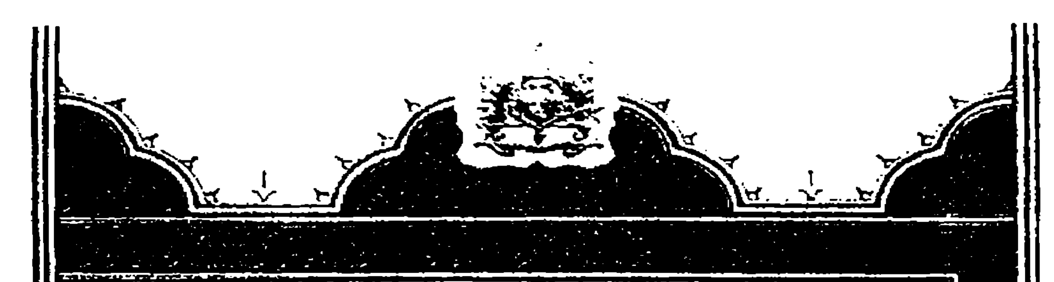
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

أيها السادة، أيتها السيدات،

لقد أبينا إلا أن نضفي على ملتقاكم هذا، وهو الأول من لقاءات سيدي شيكر العالمية، سابغ رعايتنا السامية، من منطلق الأمانة التي نتقلدها كأمير للمؤمنين، والتي تلقي على عاتقنا مسؤولية رعاية الشؤون الدينية في مملكتنا بجميع مظاهرها وأبعادها، لذا يطيب لنا أن نوجه إليكم هذه الكلمة، مرحبين بكم، متمنين للمشاركين في هذا الملتقى من خارج المغرب مقاما هنيئا ومفيدا، يتعرفون خلاله على بلد يفتخر في ذاكرته برصيد من التراث الصوفي والتربوي الروحي، المتمثل في عدد من أقطاب التصوف الإسلامي وشيوخه من المغاربة المعروفين على مستوى العالم الإسلامي.

لقد استوعب أبناء هذا البلد الطيب، منذ اعتناقهم للإسلام أن جوهر الدين هو تزكية النفس وتطهيرها من الأنانية والحقد والتعصب، وتحليها بمكارم الأخلاق، والتسامي عن الشهوات المذلة للقلب والروح والعقل؛ بضبط النفس ومراقبة سلوكها اليومي، ابتغاء للاكتمال الروحي المصطلح عليه بـ «التصوف».

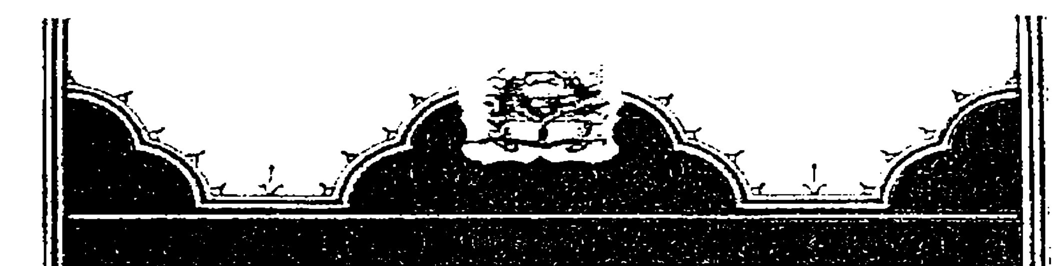
ولقد تأسست في المغرب عبر القرون، طرق صوفية على أيدي شيوخ مربين، شهد لهم الناس بعلو الهمة، وشغوف الإدراك، واتخذوهم نماذج في القدوة



السلوكية. وكانت تلك الطرق الكبرى بمثابة مدارس روحية وتربوية، خدمت الإسلام بالترسيخ لقيمه، والتعميق لقواعده، والتكييف مع ظروف الزمان والمكان. وكان تأطيرها للناس يتجلى في عدد من الزوايا في المدن والقرى، التي ما يزال بعضها قائماً إلى اليوم. كما كان أسلافنا من الملوك، رضوان الله عليهم، إذا وجهوا الخطاب إلى القائمين على شؤون الزوايا، يسمونهم بالمرابطين، استيحاء من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث تدل المرابطة من بين ما تدل عليه، على الاعتكاف من أجل تهذيب أخلاق النفس البشرية، وهو أفضل الجهاد.

كما كانوا يضفون على شيوخ الزوايا أردية التوقير والاحترام، ويستنصحونهم في الشدائد والملمات، إقراراً بدورهم الفعال في إصلاح المجتمع وتقوية جانب المناعة الخلقية في مواجهة البدع والضلالات، والغلو والتشدد، والتسابق إلى جلب المصلحة، وعمل البر والتقوى، وإنزال السكينة في القلوب، ونبذ المفسدة، ودرء الإثم والعدوان.

والمتأمل في تاريخ صوفية المغرب، يجد في سلوكهم وتعابيرهم، سواء لدى الصفوة أو على مستوى عامة الناس، ما يجده عند غيرهم من صوفية البلاد الأخرى، من رسوخ كبير في الأذواق والرقائق وفهم القرآن. ولعل صوفية المغرب قد تميزوا عن سواهم بما غلب عليهم من نزعة اجتماعية وتربوية وخلقية، فقد اشتغلوا، على الخصوص، بتعليم القرآن الكريم ونشر تعاليمه، بأسلوب مبني على مخاطبة القلوب وتعميق رجائها في رحمة الله التي وسعت كل شيء. كما عمقوا محبة آل البيت في النفوس، وأسسوا المدارس وخزائن الكتب، وسهروا على إصلاح ذات البين بين الناس، ونشروا قيم التضامن والتكافل، وقضوا بما نسجوه من روابط الأخوة القلبية، على عدد من حواجز التمايز العرقي والقبلي، والغوا كثيراً من مظاهر



الاقتصادي الاجتماعي. وذلك بحث الناس على التسابق في الخيرات والتسامي على الماديات وتعميق استشعار الافتقار لله تعالى، والاستغناء به عما سواه. وإذا كانت مناحي تأثيرهم التربوي والاجتماعي تند عن الإحصاء، فإن ثلاثة أمور جليلة جديرة بالإشارة في هذا المقام، أولها مساندة الإمامة الشرعية في القيام بأعبائها، مع الحفاظ على الوحدة المذهبية المالكية والعقيدة الأشعرية والانفتاح، وثانيها تحرير النفوس من حب الرئاسة المغرضة، وترويضها على الشكر لله، ونبذ أنواع الأنانية والطغيان، وثالثها تخريج ثلة من الرواد الذين لم تستنفذ في أذهانهم النوازع الكونية مع التحلي بالروح الوطنية الخالصة.

أيتها الفاضلة، أيتها السادات،

ما أحوج الإنسانية في عالمنا اليوم، إلى تفعيل قيم التسامح والتضامن والإيثار وردع الأنانيات الهوجاء، بل ما أحوج المسلمين إلى إحياء قيمهم المثلى في الأخلاق، والعمل والتعايش الجميل مع الآخر. ولا شك أن المعاني التي نستحضرها عندما نذكر أعلام الزهاد والصالحين وأياديهم البيضاء على حضارة الإسلام، تجعلنا نتشوف إلى ورود تلك المنابع الصافية من الخلق الرفيع، باعتبار أن ما هو مستوحى من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، لا يمكن أن ينظر إليه كتراث جامد، أو نزوع ولى زمانه، فالعمل التربوي من أجل إصلاح الفرد من الداخل، هو المطلوب في كل وقت وحين، تجسيداً للإيمان بأن الإنسان من حيث هو محل التكريم الإلهي، والاستخلاف في الأرض، مؤهل لتحقيق الكمال، في نفسه ومجتمعه وبيئته.

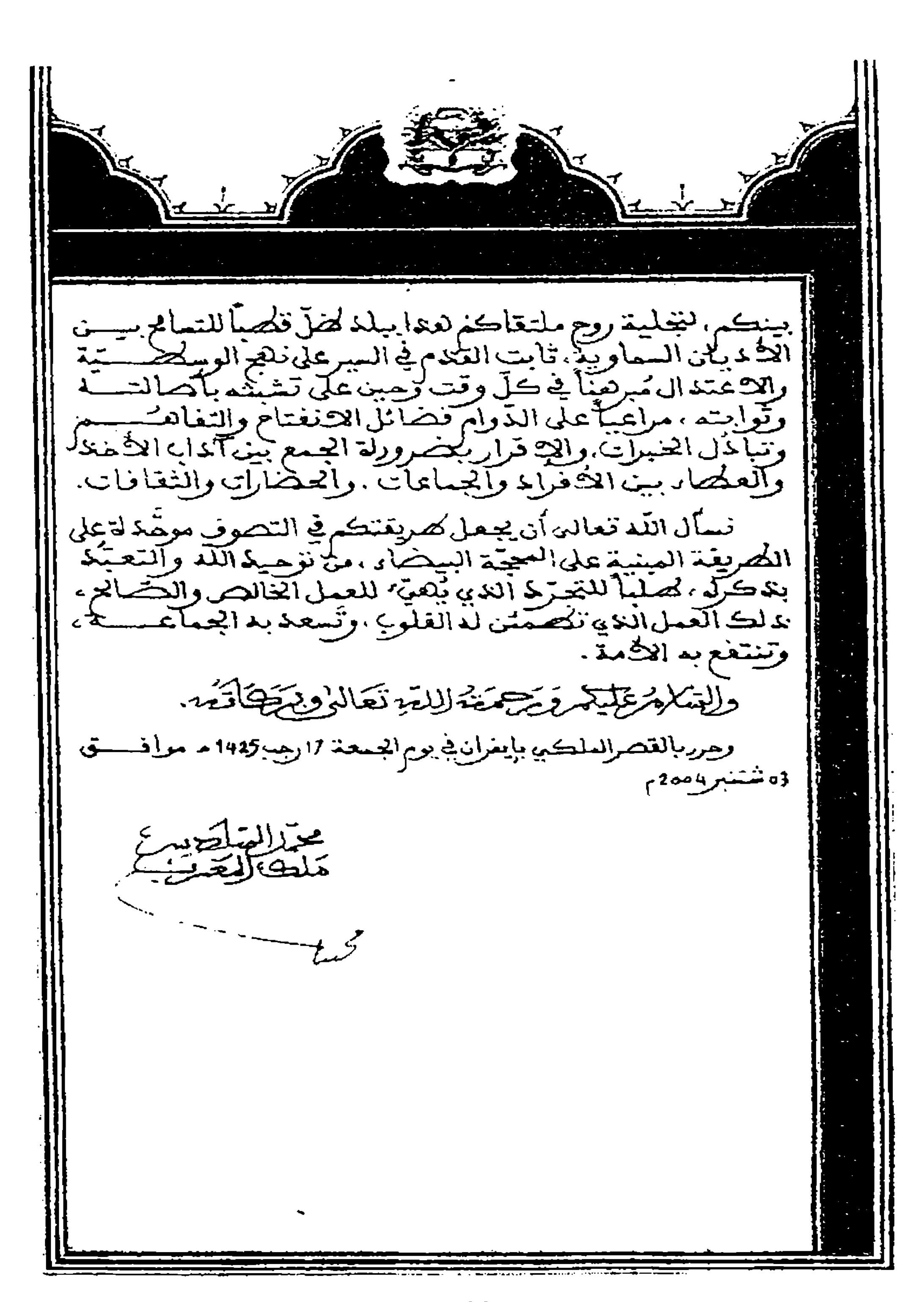
في هذا السياق، نود الإعراب عن إشادتنا بالفكرة التي تؤمنون بها والغاية النبيلة التي تجاهدون أنفسكم لتحقيقها في سبيل استرجاع التوازن بين المادة والروح. كما نهيب بكم للتعاون على



ما يجمعكم من الأهداف والقيم المثلى، بالرغم من تنوع المشارب والطرائق التربوية، التي تؤدي كلها إلى نفس المحجة، وهي العقيدة الإلهية الصحيحة التي تجمعكم وتوحد منظوركم. ولن يتحقق ذلك إلا بالتسامح الذي يفرض علينا اليوم أكثر من أي وقت مضى، الإسهام في تصحيح النظر إلى الإسلام عند أهل ملتكم أولا، ثم عند أهل الملل والمذاهب الأخرى ثانيا، وأنتم أهل التوجهات الروحية التي تسمو على المذهبيات والعرقيات، القادرون على استثمار حكمتكم في تنوير العقول، وتطهير النفوس الحاقدة والمتعصبة أو الجاهلة مما ران عليها من التصادم والتعصب.

ولما كان اختيارنا السياسي في المغرب، هو ترسيخ النهج الديمقراطي في تدبير شؤون شعبنا تدبيرا عصريا في توافق تام مع ديننا الحنيف، فإننا نرى أن حرية التنظيم والمبادرة المكفولة بالقانون، تفسح المجال أمام جميع الطاقات التي كانت مكبوتة تحت وطأة الخوف أو الحد قصدا أو الاحتكار، فلا شيء مع هذه الاختيارات الديمقراطية المنصفة يمكنه أن يحد اليوم من المبادرات الخيرة والمساعي الهادفة إلى إسعاد الإنسان وترقية أحواله.

ولا شك أن في تجربتكم الموروثة من أجل تحقيق هذه الأهداف، ما يؤهلكم للعودة إلى الميدان الديني والتربوي والاجتماعي المنزه عن كل توظيف سياسوي رخيص أو مغرض، متحلين بقيم التصوف الأصيل القائم على الجمع بين الورع والتقوى والاستقامة في السلوك، وبين العمل الخالص المنزه عن الأغراض الذاتية، سيما وأن المجتمعات في عصرنا هذا، قد أخذت في إعلاء كل قيم التجرد والتسامح، وفي الأخذ بعدد من مفاهيم الثقافة التي قامت عليها طريقتكم. فما عليكم إلا أن تنافحوا عن هذه القيم، ذات المنطق الموحد والهدف



بينكم، لتجلية روح ملتقاكم هذا بلدا ظل قطبا للتسامح بين الأديان السماوية، ثابت القدم في السير على نهج الوسطية والاعتدال، مبرهنا في كل وقت وحين على تشبثه بأصالته وثوابته، مراعيا على الدوام فضائل الانفتاح والتفاهم وتبادل الخبرات، والإقرار بضرورة الجمع بين آداب الأخذ والعطاء بين الأفراد والجماعات، والحضارات والثقافات.

نسأل الله تعالى أن يجعل طريقتكم في التصوف موحّدة على الطريقة المبنية على المحجة البيضاء، من توحيد الله والتعبد بذكره، طلبا للتجرد الذي يهيئ للعمل الخالص والصالح، ذلك العمل الذي تطمئن له القلوب، وتسعد به الجماعة، وتنتفع به الأمة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وحرر بالقصر الملكي بإيفران في يوم الجمعة 17 رجب 1425 هـ موافق 03 شتنبر 2004 م

محمد السادس
ملك المغرب

الرسالة الثانية
لجلالة الملك محمد السادس
إلى المشاركين في الدورة الوطنية الثانية للقاء سيدي شيكر (إقليم أسفي) المنتسبين للتصوف

سيدي شيكر بتاريخ 19/09/ 2009

" الحمد لله وحده ،والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

أصحاب الفضيلة، حضرات السيدات والسادة يطيب لنا أن نتوجه بهذا الخطاب إلى السيدات والسادة الأفاضل، المشاركين في هذا الملتقى الديني الكبير الذي أضفينا عليه رعايتنا السامية، تجسيدا لما نوليه كأمير للمومنين وحام لحمى الملة والدين، للتوجه الصوفي السني الذي تنتسبون إليه، من موصول عنايتنا، باعتباره من مكونات الهوية الروحية والأخلاقية، للشعب المغربي، في نطاق السنة المطهرة والشريعة الإسلامية السمحة، التي أكرمنا الله بها .

ونود الإشادة بالتئام هذا الملتقى المبارك، والتنويه بالجهود الخيرة، التي بذلت من اجل إنجاحه، وتحقيق الغايات النبيلة من إقامته.

وحينما أضفينا سابغ رعايتنا السامية على اللقاء الأول، من لقاءات سيدي شكر العالمية، للمنتسبين إلى التصوف فقد أبينا إلا أن نؤكد حرص جلالتنا الشريفة، على صيانة القيم السامية، والمثل العليا،

التي التزم بها سلفنا الصالح، في هذا البلد الأمين، والنهوض بما طوقنا الله به، من أمانة إمارة المومنين، القائمة على رعاية شؤون الدين.

وحتى نضفي على رعايتنا مضمونا ملموسا، وبعـــدا مـــستداما للقاء الوطني الأول من هذه اللقاءات المباركة، فقد أذنـــا لوزيرنـــا في الأوقاف والشؤون الإسلامية، بأن يتم تنظم، هذه اللقاءات، في صيغتها العالمية،كل عامين، في فصل الربيع كما أمرناه بإقامة لقاء وطني منـــتظم، حتى يتاح لفعاليات مختلف الطرق والزوايا، المكونة للنـــسيج الـــصوفي بمملكتنا الشريفة، المشاركة على الوجه المرضي،كما وكيفا، في كل مـــا من شأنه دعم القيم الروحية، والفضائل الربانيـــة، والتـــأطيرالأخلاقي للمجتمع، وهو ما اضطلعت بها طرق التصوف وزواياه في بلدنا، علـــى امتداد العصور.

ولكن كانت الصيغة الدولية لهذه اللقاءات، ستحفظ لنا وشانج التوصل والتعارف والتشاور مع المهتمين بهذا المشرب، النـــاهلين مـــن عذب زلاله، ولاسيما ذوي الأسانيد المتأصلة في المغرب، باعتباره منبعا زاجرا للعطاء المتميز، والريادة النموذجية في هذ ا المجال، فإن الـــصيغة: الوطنية التي تدشنوها اليوم، تبررها ضرورة العناية: بأحوال هذا التوجه الروحي من الداخل حتى تتبين الوسائل والطرق الكفيلة باستثمار طاقته في التنمية البشرية الخلقية، على أساس تفعيل دور التصوف، في التربيـــة والتزكية، وتهذيب النفوس، والدفع بها إلى طلب السمو والاكتمال.

إنكم باجتماعكم هذا تحيون سنة تاريخية طيبة، لأن لقاء سيدي شيكرمثل أحد المواسم الدينية الأولى التي ابتكرها المغاربة، في بـــدايات تاريخهم الإسلامي، بقصد الإرشاد والتنوير في شؤون الدين، ويعد الرباط الذي أقيم حول مسجده مدرسة للجهاد الأكبر، الذي هو إشاعة العلم الشرعي، وبناء الشخصية المسؤولة الفاضلة، التي تقوم علـــى محاســـبة

النفس وامتلاك زمامها، وكبح جماحها أمام نزوات الهوى، والانحراف والضلال .

ولا عجب، فإن لقاءات سيدي شيكر الأولى، كانت تجمعات يحج إليها العلماء والصالحون، ويحضرها آلاف الرجال والنساء، من كل جهات المغرب، لتلاوة القرءان الكريم، واستحضارا للسنة النبوية المطهرة، والإصغاء للموعظة الحسنة، وقد كان موعدها هو شهر رمضان المبارك، ولا شك أن كل الزوايا الصوفية، التي قامت في مختلف المدن والقرى، على توالي القرون، إنما استلهمت هذا النموذج، وتطيبت بنفحاته الزكية العطرة:

أصحاب الفضيلة، حضرات السادة والسيدات، إن رعايتنا لأحوال الزوايا، على غرار سنن أجدادنا الميامين، تقدير عميق من جلالتنا، لإسهام الطرق الصوفية المغربية في الإرشاد الروحي، ونشر العلم والتنمية، والدفاع عن حوزة الوطن ووحدته، وتماسك المجتمع، وتثبيت الهوية الدينية للمغاربة.

والتصوف، وإن كان مداره على التربية وترقية النفس في مدارج السلوك، فإن له تجليات على المجتمع، ومن هذه التجليات ما يظهر في أعمال التضامن والتكافل، وحب الخير للغير، والحلم والتسامح ومخاطبة الوجدان والقلوب، بما ينفعها ويقومها .

ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام، ضرورة التزام جميع الزوايا الصوفية بمنهاج الصفاء، الذي أسست عليه وتنزيهها عن الأعراض، والسمو بأهلها عن كل ما لا يليق بهم، من ابتغاء العاجل وترك الآجل.

إنكم في لقائكم هذا كطائفة واحدة، مشربكم واحد وقصدكم واحد خدمة الدين والوطن، أما خدمة الدين، فمنهجكم القويم فيها، يتمثل أساسا في الاعتصام بالكتاب والسنة، وإشاعة العلم،

وتهذيب النفس بالإكثار من الذكر، يضاف إلى هذا عمل المعروف، وإغاثة الملهوف، وكل أنواع البر، وأما خدمة الوطن، فتتمثل أساسا في القيام بالواجب نحو الإمامة العظمى، التي تمثلها إمارة المؤمنين، والحرص على خصوصيات المغرب الثقافية، حتى لا تضمحل تحت تأثير كل المشوشات الداخلية، وبذلك تحفظ كل المقومات التي تتيح الطمأنينة والسكينة والأمن.

إن الحكمة المستمدة من التراث الذي هو وديعة لديكم، كفيلة بأن تجعلكم من كبار المساهمين الفعالين في الاندماج في كل ما تقتضيه بسيرورة الإصلاح الشامل الذي نقوده: ولاسيما بنقل القيم التي قام عليها التصوف إلى الأجيال الجديدة، بالأسلوب الذي يجعلهم يستوعبونها ولا يتنكرون لها، إنه الإحياء المطلوب من المنتسبين إلى التصوف، إحياء يسترشد بنماذج الصلاح في الماضي، ويعرف كيف يجددها في الحاضر وينافس بها في المستقبل، ذلك لأن على المغرب، الذي يعتبره العارفون في العالم، منبت قيم الصلاح، المبني على فكرة التصوف بشكل استثنائي، عليه مسؤولية كبرى في هذا المقام، ندعوكم إلى تدبر أبعادها، وتقديرها حق قدرها.

إننا على يقين أن الرصيد الحي، الذي ورثه كل المنتسبين إلى التصوف، يتضمن القدرة على الاستمرارية والتجديد في آن واحد، الاستمرارية في صيانة الثوابت، في العقيدة والمذهب، والولاء لإمارة المؤمنين، والتجديد في المبادرات والسلوكيات، التي جعلت من أبناء الزوايا وأتباعها، أبناء وقتهم، ونماذج في القدرة وفي المسارعة إلى النفع، النمط الذي أكسب هذه المؤسسة هيبة وقدسية وتبجيلا، ومصدرا للخير العميم، فهو مورد كرعنا منه بالأمس، فما أحوجنا إلى النهل من

معينه، في الحاضر والمستقبل، على ما عهد في أصحابه من التجرد الذي لاتشوبه شائبة من الأطماع، ولا تكدره نوازع الأهواء:

فعسى أن يكون هذا اللقاء الأول، الذي نرحب بكل ضـــيوفه الكرام، من الفقهاء والصلحاء والمريدين، فاتحة عهد جديـــد، في حيـــاة المنتسبين إلى التصوف في بلدنا، حتى إذا اجتمعوا بحول الله وقوتـــه، في اللقاء الذي يليه، استعرضوا ما وفقهم الله إليه من ثمـــرات الاجتـــهاد، وتجديد العهد، والإقبال على طريق الحق: تحققا بوحدانية الله تعـــالى في منازل السائرين، ومدارج العابدين، " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، طوبى لهم وحسن المآب": صدق الله العظيم: والسلام عليكم ورحمة الله تعـــالى وبركاته.

أشرف بقعة وأقدس بناحية مراكش

للشيخ عبد الحي الكتاني

لا يخفى أن مراكش ثانية مدن المغرب قدما وحضارة وعلما وموضعها من أفضل جهات القطر زراعة ومعادن ومناظر، ولكن بالقرب من مدينة مراكش بقعة إن لم تكن أفضل بقاع تلك الأرض، فمن أفضل بقاعها وأولاها بالاعتبار والعناية والبحث. في فسيح مهيب واسع الخطى يظل فيه الماشي ويستوحش فيه الأنيس، بعيد عن الرائي والمتأمل، ذكريات بلاد العرب إن كان رآها وقرأ عنها، وصحراء إفريقية الكبرى وشاسع أطرافها، بقعة من أقرب البقع التاريخية إلى مراكش مسافة، ويكاد يجهلها الجيل الحاضر تماما.

كانت هذه البقعة في التاريخ الغابر أشهر من (قفا نبك) حيث كانت محطة نظر عقبة ابن نافع الفهري في وقت الفتح الإسلامي – على عهده – ومركز جيشه.

وكانت عاصمة الإسلام في المغرب إذ ذاك وقل عاصمة جلق، ومن جلق تستمد الأوامر والنواهي وقت ما كانت دمشق عاصمة لمعاوية بن أبي سفيان، وكانت منتهى حكم دمشق الشام ونهاية نفوذ دمشق، هي بقعة على مسافة نحو ميل من مراكش على ضفة واد تانسيفت، وكانت تعرف قديما بمدينة نفيس.

قال أبو عبيد البكري في المسالك والممالك صحيفة 160 وهي تعرف بالبلد النفيس كثير الأنهار والثمار، ليس في ذلك القطر أطيب منه ولا أجل منظرا، وهي قديمة أولية غزاها عقبة ابن نافع صاحب (كـذا) رسول الله صلى عليه وسلم وحاصر بها الروم ونصارى البربر وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها فلزمهم حتى فتحها وبنى بها مسجدا إلى اليوم وأصابوا غنائم كثيرة وذلك عام 62 وهي اليوم آهلة عامرة بها جامع وحمام وأسواق جامعة بينها وبين البحر مسيرة يوم، يسكنها قبائل من البربر أكثرهم مصمودة، وكان صاحبها حمزة بن جعفر الذي ينسب إليه السوق من بني عبد الله بن إدريس هـ كلام أبي عبيد البكري، وهذا الموضع صار يعرف فيما بعد برباط شاكر ويسميه العامة اليوم في تلك الجهة (سيدي شيكر) وهو شاكر بن يعلى بن واصل الرجراجي.

قال أبو العباس الناصري في الاستقصا ص: 115 ج 4 ووقع في التشوف أن شاكر الذي ينسب إليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب وأنه هناك. ونقل أبو علي اليونسي في المحاضرات من التشوف أيضا أن يعلى بن مصلين الرجراجي بناه أي الرباط وكان يقاتل به كفار برغواطة مرات وأن طبله هو الباقي هناك إلى الآن. ويعلى هذا الذي كان يقاتل برغواطة في هذه الجهة قبل ورود عقبة وبنى بها الرباط المذكور، هو أحد رجال رجراجة السبعة، الذين يذكر أنهم وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في زمانه بمكة قبل الهجرة، وكلمهم بلغتهم البربرية فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، وأنهم أول من أدخل الإسلام إلى المغرب، وحكاية ورودهم على الرسول عليه الصلاة والسلام من المغرب مذكورة في شرحي ابن مخلوف وابن الشريف التلمساني والخفاجي على الشفا، وشرح أكرام السوسي على الرسالة، وأفرد إثبات صحبتهم بالكتابة جماعة منهم شيخ الشيوخ أبو

عبد الله محمد بن سعيد المرغتي السوسي قال: اشتهرت صحبتهم ببلاد المغرب اشتهارا يأبى الله أن يكون باطلا بين الخواص والعوام، ومنهم شيوخنا الذين اعتمدنا عليهم، ومنهم شيخنا حافظ المغرب العلامة أبو محمد عبد الله ابن علي بن طاهر الحسني، وغيرهم من أشراف أهل بلدة العلم، منهم مفتي الحضرة الحمراء ومفسرها ومؤرخها سيدي عبد الواحد بن أحمد وكفى به حجة هـ.

وقد تكلم على صحبتهم معترفا بها ابن يعقوب الولالي في مباحث الأنوار، وابن الطيب القادري في النشر والتقاط الدرر، وأبو الربيع الحوات في الروضة المقصودة في ترجمة أبي عبد الله الجندوز المصمودي قائلا وقد تصدى لتصحيح عددهم ووفودهم على النبي صلى الله عليه وسلم غير واحد من الأئمة الأكابر، وكلهم ذكروا كلامهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتهم وعينوا مدافنهم وأسماءهم وأنهم المعروفون برجال رجراجة القاطنين ببلاد حاحا ولهم فضل مشهور يقصدهم الناس للزيارة هـ، وفي الترجمانة الكبرى للزياني، وأول من أدخل الإسلام للمغرب قيل إنهم رجال ركراكة السبعة من المصامدة، وقيل وفدوا على عثمان وله عليهم الولاء إلخ. وما ذكره من إسلام مغراوة في زمن عثمان يؤيد ما ذكره بن خلدون من أن عقبة لما وصل إلى درن وقاتل المصامدة وحاصروه بدرن نهضت إليه جموع زناتة قال: كانوا خاصين للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة على عقبة. انظر الاستقصا ص: 38، ج 1. وأرى أنه لا يستبعد ورود هؤلاء المصامدة على النبي صلى الله عليه وسلم من المغرب، لأن ما يظن من بعد المسافة ليس له أثر هنا، فهو استبعاد شخصي، ورب قوم جبلوا على اقتحام الأسفار على بعد الديار فيسهل لهم من البعد في المهامه والقفار ما يظن الواحد منا إذا سمعه أنه حديث خرافة، سيما الحديث في صحيح

مسلم عن نافع بن عنبسة قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة فقال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم قوم من المغرب عليهم ثياب صوف فوافوه عند أكمة، فإنهم لقيام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، قالت لي نفسي آتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال قلت لعله نجا منهم فقمت بينهم وبينه الحديث.

وقد وجدت في شرح ابن التلمساني على الشفا وهو من رجال القرن العاشر ما يستغرب سماعه أن ابنا لأبي جهل بعد فتح مكة ورد على المغرب لناحية آسفي وسكن بها قال حكى ذلك أبو التقى صالح بن عبد الحليم وقال حدثني بنفسي إليه الشيخ الفقيه المسن أبو يعقوب الماجري ثم ساق عموده إلى أبي جهل من جهة الولد المذكور، ومثله في الغرابة ما ذكره ابن التلمساني المذكور في شرحه على الشفا أيضا، ناقلا عن العالم الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي علي الحسن ابن مخلوف الراشدي المعروف بأبركان، قال ذكر أبي عن شيوخه أن في غزوة الأحزاب سار فيها لنصرة قريش من جبال صدينة من المغرب الأقصى أربعون رجلا أو فارسا ذكره أبو زيد الجزولي.

وهذا وإن كان مما لم يألف الناس سماعه، وربما يستبعدونه من جهة طول المسافة بين الحجاز وإفريقية، فإنا نقرأ مثلا أن الحسن بن سعيد الخراط يقول إن عبد الله بن الزبير لما ذهب إلى عثمان بالمدينة بخبر الفتح في إفريقية وصل إلى المدينة من سبيلطة في ثمانية عشرة يوما. انظر معالم الإيمان، في رجال القيروان ص: 63، ج 1، وسبيطلة هذه من القطر التونسي، وجاء أيضا في معالم الإيمان ص 41 أن بين ثغر إفريقية وهو طنجة وبين القيروان ثمانية أيام، ويسهل عليك تصوير هذا أن طرق البريد المترعج هي غير مسالك المارة من الجيش العرمرم، أفلا ترى أنهم

يقولون إن الأمر من المنصور السعدي كان يصل من مراكش إلى فاس في يوم واحد على طريق درن على الجمال العشارية.

فإذن ليس هناك استبعاد، وحيث أن الأمر كذلك، فنذكر أن المؤرخ النسابة بن إبراهيم الدكالي الفاسي في سلسلة الذهب المنقوذ قال: وجدت بخط العلامة أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي أنكر والدنا ما يذكر من أن قبور بعض الصحابة بسوس بأنه لم يوجد في تاريخ الصحابة، وباستبعاد وصول الصحابة إلى المغرب، وقد كان بسه ودونه ممالك للكفار قال كاتبه عبد الرحمان، ثم وقفت في تأليف لأبي علي صالح بن أبي صالح في القبلة وقد عد المساجد القديمة فقال: منها المسجد المنسوب إلى عقبة بن نافع الفهري على واد نفيس بقرب دكالة وبنى مسجده المعروف إلى الآن، فلا شك أنه وصل إلى مدينة نفيس إلخ، فانظره يتبين لك موت الصحابة هناك ودفنهم، فالبعيد أن يكون جيشه وصل ثم لم يمت منه أحد هـ كلامه، وأبو علي صالح بن أبي صالح الذي نقل عنه ما ذكر هو أبو علي صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس الإيلاني التاريخي الزاهد الورع، ترجمة ابن القاضي في درة الحجال وقال كانت حياته سنة 712.

وقد عقد أبو العز التميمي في طبقات علماء إفريقية من الصحابة والتابعين انظر ص 11، وعقد الحافظ أبو زيد الأنصاري الدباغ في معالم الإيمان وابن ناجي في تهذيبه ترجمة لمن نزل بالقيروان من الصحابة انظر ص 30 إلى 38، وترجم في الاستقصا بقوله: ذكر من دخل المغرب من الصحابة مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم، ص 29 ج 1، فذكر منهم الحسن والحسين والعبادلة، وقال أخرج بن عبد الحكيم عن سليمان بن يسار قال: غزونا إفريقية مع ابن جريج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار. أما

وصول عقبة إلى واد نفيس الذي ذكره البكري وابن عبد الحليم فقد قال الولي ابن خلدون في العبر: وصل عقبة إلى مدينة درن وقاتل المصامدة بها فكان بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبل درن، ثم دوخ بلادهم ثم جاز إلى السوس وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل حشد له من وراء سوس ودوخهم وقفل راجعا، وقال الحافظ أبو زيد الدباغ القيرواني في معالم الإيمان: كان عقبة رضي الله عنه حريصا في مغازيه بلغ إلى سوس المغرب وإلى بلاد السودان وفتح سائر إفريقية وودان وعامة بلاد البربر هـ منه ص 73 ج 1. وفي رحلة أبي علي اليوسي وهي من جمع ولده لما تكلم على ضريح عقبة وترجمته ويقال إنه بلغ إلى أقصى المغرب وبلغ واد درعة وإليه نسبت القرية المدعوة أعقبت بخميس تترلين هـ ومن خطه نقلت وانظر معالم الإيمان وتاريخ الجمان والاستقصا في وصول عقبة وأنه انتهى إلى بلاد آسفي وأدخل قوائم فرسه في البحر إلى آخر القصة.

هذا وإذا ذكر أن هذا العدد من الصحابة دخل المغرب، فما يمنع أحدهم من الموت وقد قاتلوا وفتحوا وتبدل عليهم الهواء والماء والطعام، وقال أبو زيد الدباغ الأنصاري في معالم الإيمان لم يدفن بالمغرب وإفريقيا من الصحابة سوى أبي زمعة البلوي، قال ابن ناجي عقبه في هذا نظر، ثم ذكر شيخه أبي القاسم البرزلي أنه قال: لما حججت زرت قبر أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقابس، ونقلهم فيه متواتر بما ذكره المؤرخون ممن علموه، وذلك يدل على أن غيرهم على خلاف ما لم يعلموا فالعمل على ما ذكره أهل قابس ولا قادح يقدح في نقلهم هـ، كلام بن ناجي، ص 11 من الجزء الأول، وهكذا القول في هؤلاء المصامدة الذين منهم يعلى وكيف يمكن للدباغ المذكور وغيره أن ينكروا دفن أحد من الصحابة بإفريقية دون أبي زمعة البلوي ر ضي الله

عنه وابن خلدون يصف في تاريخه مقتل عقبة بتهودة، بسكرة اليوم إلخ، وإنما لما انفصل عن المغرب تعرض له كسيلة وقد كان استصحبه معه في الجيش الذي فتح به المغرب، فانقض عنه وقاتله بجيوش من البربر قال في عقبة وأصحابه لم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد بمكانهم. قال ابن خلدون وقبور الصحابة رضي الله عنهم وأولئك الشهداء أعني عقبة وأصحابه بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة قال وهو في عدد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفي فيه عدد من الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه، وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهما هـ كلام ابن خلدون، ونقله في الاستقصا ص 39 ج 1، فهذا نص صريح في أن العدد الذي مات من الصحابة مع عقبة كان معه في المغرب الأقصى ومدينة نفيس، فهل كان هناك رصيد لئلا يموت أحد من الصحابة بواد نفيس وبلاد المصامدة أن هذا عجب عجاب.

وهذه البقعة التي ذكر ابن أبي زرع وغيره من المؤرخين أن الفاتح الأعظم المؤسس الأول في المغرب لأول دولة إسلامية مستقلة مولانا إدريس، أول ملك في المغرب ثبتت به دولة الإسلام واستقرت إلى الآن، لما فرغ من بناء مدينة فاس أقام بها إلى عام 197 فخرج إلى غزو نفيس من بلاد المصامدة، فوصل إليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات وفتح سائر بلاد المصامدة ورجع إلى فاس هـ، ونحوه لابن القاضي في الجذوة وصاحبي الاستقصا تحت ترجمة غزو إدريس بن إدريس المغربين واستيلائه عليهما، ثم ذكر في الاستقصا أيضا أن محمد بن إدريس، فعلى

هذا توالت أيدي بني عبد الله على مدينة نفيس مددا، وبعد زوال دولة الأدارسة زالت مدينة نفيس هذه وما بقيت تعرف إلا بالرباط الذي تبقى بها، ولم يزل رباط شاكر هذا على اختلاف الأجيال والقرون تشد له الرحال من جميع نواحي المغرب وخصوصا قبائل الحوز في كل ليلة من 27 من رمضان فتختم فيه عدة سلك من القرآن وفي المنهاج الواضح في ترجمة الشيخ أبي محمد صالح دفين آسفي وهو من رجال القرن السابع أنه كان لا يتخلف عن حضور موسم شيكر بواد نفيس، ويذكر ما لقي به ومن اجتمع به هناك من أفراد العباد، ونحوه لابن عبد العظيم الزموري في تاريخ بني مغار، ولما تكلم أبو علي اليوسي في المحاضرات على المواضع التي وقع التغالي فيها بالمغرب قال، ومنها رباط شاكر وهو مشهور، وكان مجمعا للصالحين من قديم، ولاسيما في رمضان، يفدون إليه من كل أوبة حتى حكى صاحب التشوف عن مينة الدكالية أنها حضرت ذات مرة في رباط شاكر فقالت لبعض من معها أنه حضر في هذا العام في الرباط ألف امرأة من الأولياء فانظر إلى عدد النساء فكيف بالرجال، فلا شك أن هذا الموضع موضع بركة ومجمع خير هـ، ونقله برمته عالم مراكش المكي السرغيني دفين فاس في الكواكب السيارة وهو تأليف في جزء استفسر فيه خطبة السلطان أبي الربيع المولى سليمان في الزيارة وما أجدره بالطبع، ونقل في سلسلة الذهب المنقوذ عن جواب للمفتي عبد الكبير بن عبد الكريم الشاوي المراكشي المعروف بابن حريرة جاء فيه لما تكلم على أحد رجال رجراجة السبع وهو يعلى بن واطل قال مدفنه برباط شاكر بالمعمورة وهو أبو سيدي شيكر المنسوب إليه الرباط المذكور، ومازال الناس بمراكش وأعمالها يقصدون هذا الرباط في ليلة 27 من رمضان يحضرون لختم القرآن بجم غفير من أخلاط الناس، وبين الرباط المذكور ومراكش مسيرة يوم هـ، ولا غرابة

في اشتهار الرباط بشاكر مع دفن أبيه فيه المقول بصحبته لأنه أحد رجال رجراجة السبع، والشهرة كالماء تفور من هنا ثم تغور وهي سنة الله في خلقه كشهرة زاوية الشيخ ابن ناصر بولده أبي العباس دون أبيه الذي هو الشيخ الأكبر للطريقة، وبالجملة فالذي يرد اليوم على مشهد هذا الرباط الواقع على طرف وادي نفيس يرى مشهدا مؤثرا وبسيطا ممتدا ومجاري ومناظر وترابا ونباتا وروابي أشبه شيء ببسيط ومناظر وتراب القيروان الذي به مسجد عقبة إلى اليوم والمسجد الموجود الآن من بناء وتجديد السلطان مجدد الدولة العلوية أبي عبد الله محمد بن عبد الله رحمه الله، فقد ذكر الزياني في الروضة السليمانية أنه لما خرج بقصد زيارة رجال ركراكة على عادته، ثم عاد إلى محل الرباط الشاكري قام بتجديده وحفر أساسه، وفي الاستقصا ص 115، ج 4 لما تعرض لهذه الزيارة فأمر بتجديد مسجده وحفر أساسه وتشييده.

وقد قصدت زيارة هذا الرباط عام 1341 واقمت به مدة في ذلك البسيط الباهظ على ضفة ذلك النهر المنهمر وأقرأت دروسا في هذا المسجد العظيم المهول في بنائه، الواسع في أكنافه الممتدة صومعته تناطح السحاب، وأمليت به دروسا حديثية حضرها أمم من تلك الأصقاع من أتباع الطائفة الكتانية وغيرهم من حمير وما إليهم، ولما رأيت إذ ذاك من أشراف المسجد على السقوط وتداعيه للهبوط آلمني ذلك فقاربت الخطى للرباط حيث السلطان المعظم المأسوف عليه المولى يوسف بن مولى الحسن رحمه الله فقصصت عليه خبر المسجد المذكور والرباط ومدفن شاكر وأبيه يعلى الرجراجي، كما قصصت عليه هذه المرة خبر المحل الذي فاضت فيه روح والده المولى الحسن رحمه الله بواد العبيد حيث غسل وكفن وما آل إليه حاله ثم زرت هذا الرباط أول سنة 1354 فوجدت أن يد بعض الأصلاح قد عملت فيه بهمة أكبر قواد

تلك الناحية الناسك الذاكر المتعبد القائد العربي بن الكوش نفعـه الله بذلك، وأخبرني هو وغيره أن السلطان العظيم الشأن المولى الحسن بـن محمد كان ينتاب هذا الرباط كثيرا، وأكثر زياراته كانت على طريـق الخفاء مريدا به التعبد والانزواء عن الضوضاء والجلبة، ونحـن بغايـة الممنونية نلقي طلب إحياء هذا الرباط وتجديد معهده على عتبة الأبواب السلطانية والمراحم الملكية المحمدية، لألفتن نظرها الشريف إلى بقعة أثرية جالت فيها يد الهدم والتخريب ومسجد أشرف على السقوط أو كـاد بعد أن هبا البنيان، وصوح سياط المدنية واندثر، ولم يبق لها مـن أثـر، وسنعيد مرة أخرى الكرة إلى هذا الموضوع بأبسط من هذا إن شاء الله" هـ[136].

[136] - عن كتاب: المواهب الربانية في ذكر مناقب الطائفة الرجراجية / مخطوط للفقيه عبد الله بن محمد بن البشير المقدم الرجراجي السعيدي، ص: 56/53، وقد نشرت هذه المقالة مجلة المغرب السنة الخامسة جمادى الثانية 1356 / يونيو، يوليوز 1936.

الفهرست

صدر للمؤلف:

- الحياة وأنا (شعر)
- الهاربة، ج1 (رواية)
- السيف المسلول، ج2/1 (تحقيق وتقديم)

شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء، ج1

- الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني: حياته وفكره ومؤلفاته.
- شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء، ج2
- جواهر الكمال في تراجم الرجال، ج2 (تحقيق بمشاركة).
- رجراجة وتاريخ المغرب.
- آسفي وما إليه (تحقيق بمشاركة).

قيد الطبع:

تواريخ مشرقة من حياة الملك و الشعب

قلمي فديتك شعر

صراخ الذاكرة

للتواصل مع الكاتب:

essaidi.rajraji@gmail.com



محمد السعيدي الرجراجي

يحار المرء وهو يلقي نظرة فاحصة على تاريخنا المغربي من هذا التنكر الذي طال كثيرا من أعلامنا في مختلف المجالات، ويحار أكثر وهو يلاحظ أن العناية كلها قد اتجهت للتاريخ الرسمي مغفلة، إلا في القليل، ما حفلت به الساحة الشعبية، وما حملت من حوادث وأحداث. ومن الذين غض عنهم الطرف، و قد كان لقرون متعددة منارة بارزة في التجمع التصوفي، الشيخ المجاهد العلامة القدوة المتصوف الكبير السيد شاكر "سيدي شيكر" بن يعلى بن مصلين الرجراجي، الذي يحاول البعض أن يسلخه حتى من وعن مغربيته، كأن هذا المغرب لا يستطيع أن ينجب شاكرا وأمثاله من أولائك الذين لو وجهت لهم العناية وأبعدت الحزازات، لتغيرت النظرة إليهم ولربح وطننا الكثير، ولرد بعض الدين لمن عملوا لرفعة شأنه وتنوير سمعته. وقد طال هذا الإهمال رغم انفراجات، إلى أن جاء أمير المومنين محمد السادس، فأمر أن تعاد للحقل الديني هيبته، وللتصوف النقي وهجيته، وأن تصان حقوق الأموات كالأحياء.

وكان الملتقى العالمي للمتصوف سيدي شيكر "شاكر" أبلغ الأثر في النفوس والقلوب والمشاعر،،، ونأمل أن تراجع أشياء في هذا الملتقى حتى يحقق ما يعلق عليه من آمال، وحتى يكون وسيلة للخير والتفاهم والتواد، كما أراد ذلك أمير المؤمنين.